

للكذب أكالون للمسحت فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين * وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين * إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والريانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون * كان الرسول ﷺ من شدة حرصه على الخلق يشتد حزنه لمن يظهر الإيمان، ثم يرجع إلى الكفر، فأرشدته الله تعالى، إلى أنه لا يأسى ولا يحزن على أمثال هؤلاء. فإن هؤلاء لا في العير ولا في النفير. إن حضروا لم ينفعوا، وإن غابوا لم يفقدوا، ولهذا قال ميبناً للسبب الموجب لعدم الحزن عليهم - فقال: ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾ فإن الذين^(٢) يؤسى ويحزن عليهم، من كان معدوداً من المؤمنين، وهم المؤمنون ظاهراً وباطناً، وحاشا لله أن يرجع هؤلاء عن دينهم ويرتدوا، فإن الإيمان - إذا خالطت بشاشته القلوب - لم يعدل به صاحبه غيره، ولم يبع به بدلاً.

﴿ومن الذين هادوا﴾ أي: اليهود ﴿سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾ أي: مستجيبون ومقلدون لرؤسائهم، المبني أمرهم على الكذب والضلال والغي. وهؤلاء الرؤساء التبعون ﴿لم يأتوك﴾ بل أعرضوا عنك، وفرحوا بما عندهم من الباطل وهو تحريف الكلم عن مواضعه، أي: جلب معانٍ للألفاظ ما أرادها الله ولا قصدتها، لإضلال الخلق ولدفع الحق، فهؤلاء المتقادون للدعاة إلى الضلال، المتبعين للمحال، الذين يأتون بكل كذب، لا عقول لهم ولا

منه، وذلك أن يكون المال محرزاً، فلو كان غير محرز لم يكن ذلك سرقة شرعية. ومن الحكمة أيضاً أن لا تقطع اليد في الشيء النزر التافه، فلما كان لا بد من التقدير، كان التقدير الشرعي مخصصاً للكتاب.

والحكمة في قطع اليد في السرقة، أن ذلك حفظ للأموال، واحتياط لها، وليقطع العضو الذي صدرت منه الجناية، فإن عاد السارق قطعت رجله اليسرى، فإن عاد، فقبل: تقطع يده اليسرى، ثم رجله اليمنى، وقيل: يجبس حتى يموت.

وقوله: ﴿جزاء بما كسباً﴾ أي: ذلك القطع جزاء للسارق بما سرقه من أموال الناس. ﴿تكالاً من الله﴾ أي: تنكيلاً وترهيباً للسارق وغيره، ليرتدع السارق - إذا علموا - أنهم سيقطعون إذا سرقوا.

﴿والله عزيز حكيم﴾ أي: عز وحكم فقطع السارق. ﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح، فإن الله يتوب عليه، إن الله غفور رحيم﴾ فيعفو لمن تاب فترك الذنوب، وأصلح الأعمال والعيوب. وذلك أن الله ﷻ ملك السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما شاء من التصاريق القدرية والشرعية، والمغفرة والعقوبة، بحسب ما اقتضته حكمته ورحمته الواسعة ومغفرته.

﴿٤١ - ٤٤﴾ ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتهم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يظهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ سماعون



فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم * فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم * ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير * السارق - هو من أخذ مال غيره المحترم خفية، بغير رضاه. وهو من كباثر الذنوب الموجبة لترتب العقوبة الشنيعة، وهو قطع اليد اليمنى، كما هو في قراءة بعض الصحابة.

وحد اليد عند الإطلاق من الكوع، فإذا سرق قطعت يده من الكوع، وحسنت في زيت لتتسد العروق فيقف الدم، ولكن السنة قيدت عموم هذه الآية من عدة أوجه:

منها: الحرز، فإنه لا بد أن تكون السرقة من حرز، وحرز كل مال: ما يحفظ به عادة. فلو سرق من غير حرز فلا قطع عليه.

ومنها: أنه لا بد أن يكون المسروق نصاباً، وهو ربع دينار، أو ثلاثة دراهم، أو ما يساوي أحدهما، فلو سرق دون ذلك فلا قطع عليه.

ولعل هذا يؤخذ من لفظ السرقة ومعناها، فإن لفظ «السرقة» أخذ الشيء على وجه لا يمكن الاحتراز

(٢) كذا في ب، وفي أ: الذي.

(١) في ب: الله له.



وضياء وذكر للمتقين ﴿ يحكم بها ﴾ بين الذين هادوا، أي: اليهود في القضايا والفتاوى ﴿ النبيون الذين أسلموا ﴾ الله وانقادوا لأوامره، الذين إسلامهم أعظم من إسلام غيرهم، وهم صفوة الله من العباد. فإذا كان هؤلاء النبيون الكرام والسادة للأنام قد اقتدوا بها واتموا ومشوا خلفها، فما الذي منع هؤلاء الأراذل من اليهود من الاقتداء بها؟

وما الذي أوجب لهم أن يبنذوا أشرف ما فيها من الإيمان بمحمد ﷺ، الذي لا يقبل عمل ظاهر وباطن، إلا بتلك العقيدة؟ هل لهم إمام في ذلك؟ نعم لهم أئمة دأبهم التحريف، وإقامة رياستهم ومناصبهم بين الناس، والتأكل بكتمان الحق، وإظهار الباطل، أولئك أئمة الضلال الذين يدعون إلى النار.

وقوله: ﴿الريانيون والأخبار﴾ أي: وكذلك يحكم بالتوراة للذين هادوا أئمة الدين من الريانيين، أي: العلماء العاملين المعلمين الذين يربون الناس بأحسن تربية، ويسلكون معهم مسلك الأنبياء المشفقين.

والأخبار أي: العلماء الكبار الذين يقتدى بأقوالهم، وترمق آثارهم، ولهم لسان الصدق بين أئمتهم.

ولست هذه منسوخة، فإنه - عند تحاكم هذا الصنف إليه - يغير بين أن يحكم بينهم، أو يعرض عن الحكم بينهم، بسبب أنه لا قصد لهم في الحكم الشرعي إلا أن يكون موافقاً لأهوائهم، وعلى هذا فكل مستفت ومتحاكم إلى عالم، يعلم من حاله أنه إن حكم عليه لم يرض، لم يجب الحكم ولا الإفتاء لهم، فإن حكم بينهم وجب أن يحكم بالقسط، ولهذا قال: ﴿ وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط، إن الله يحب المقسطين ﴾. حتى ولو كانوا ظلمة وأعداء، فلا يمنعك ذلك من العدل في الحكم بينهم.

وفي هذا بيان فضيلة العدل والقسط في الحكم بين الناس، وأن الله تعالى يحبه.

ثم قال متعجباً لهم^(١): ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله، ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين﴾ فإنهم - لو كانوا مؤمنين عاملين بما يقتضيه الإيمان ويوجبه - لم يصدفوا عن حكم الله الذي في التوراة التي بين أيديهم، لعلمهم أن يجدوا عندك ما يوافق أهواءهم.

وحيث حكمت بينهم بحكم الله الموافق لما عندهم أيضاً، لم يرضوا بذلك بل أعرضوا عنه، فلم يرتضوه أيضاً.

قال تعالى: ﴿وما أولئك﴾ الذين هذا صنيعهم ﴿بالمؤمنين﴾ أي: ليس هذا دأب المؤمنين، وليسوا حريين بالإيمان. لأنهم جعلوا آلهتهم أهواءهم، وجعلوا أحكام الإيمان تابعة لأهوائهم.

﴿إننا أنزلنا التوراة﴾ على موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام. ﴿فيها هدى﴾ يهدي إلى الإيمان والحق، ويعصم من الضلالة ﴿ونور﴾ يستضاء به في ظلم الجهل والخيرة والشكوك، والشبهات والشهوات، كما قال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان﴾

هم. فلا تبال أيضاً إذا لم يتبعوك، لأنهم في غاية النقص، والناقص لا يؤبه له ولا يبالي به.

﴿يقولون إن أوتيتهم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا﴾ أي: هذا قولهم عند محاكمتهم إليك، لا قصد لهم إلا اتباع الهوى.

يقول بعضهم لبعض: إن حكم لكم محمد بهذا الحكم الذي يوافق أهواءكم، فاقبلوا حكمه، وإن لم يحكم لكم به، فاحذروا أن تتابعوه على ذلك، وهذا فتنة واتباع ما تهوى الأنفس.

﴿ومن يرد الله فتنته فلن نملكه له من الله شيئاً﴾ كقولته تعالى: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾.

﴿أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم﴾ أي: فلذلك صدر منهم ما صدر.

فدل ذلك على أن من كان مقصوده بالتحاكم إلى الحكم الشرعي اتباع هواه، وأنه إن حكم له رضي، وإن لم يحكم له سخط، فإن ذلك من عدم طهارة قلبه، كما أن من حاكم وتحاكم إلى الشرع ورضي به، وافق هواه أو خالفه، فإنه من طهارة القلب، ودل على أن طهارة القلب، سبب لكل خير، وهو أكبر داع إلى كل قول رشيد وعمل سديد.

﴿لهم في الدنيا خزي﴾ أي: فضيحة وعار ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ هو: النار وسخط الجبار.

﴿سماعون للكذب﴾ والسمع هاهنا سمع استجابة، أي: من قلة دينهم وعقلهم، أن استجابوا لمن دعاهم إلى القول الكذب.

﴿أكالون للسحت﴾ أي: المال الحرام، بما يأخذونه على سفلتهم وعوامهم من المعلومات والرواتب، التي يغير الحق، فجمعوا بين اتباع الكذب وأكل الحرام.

﴿فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ فأنت يغير في ذلك.

هذه ما أشبهها من الأطراف التي يمكن
الاقتصاص منها بدون حيف .

﴿والجسروح قصاص﴾
والاقتصاص : أن يفعل به كما فعل .
فمن جرح غيره عمداً اقتص من الجراح
جرحاً مثل جرحه للمجروح ، حداً ،
وموضعاً ، وطولاً ، وعرضاً وعمقاً ،
وليعلم أن شرع من قبلنا شرع لنا ، ما لم
يرد شرعنا بخلافه .

﴿فمن تصدق به﴾ أي : بالقصاص
في النفس ، وما دونها من الأطراف
والجروح ، بأن عفا عن جنى ، وثبت
له الحق قبله .

﴿فهو كفارة له﴾ أي : كفارة
للجان ، لأن الأدمي عفا عن حقه .
والله تعالى أحق وأولى بالعفو عن حقه ،
وكفارة أيضاً عن العافي ، فإنه كما عفا
عن جنى عليه ، أو على من يتعلق به ،
فإن الله يعفو عن زلاته وجناباته .

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك
هم الظالمون﴾ قال ابن عباس : كفر
دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق
دون فسق ، فهو ظلم أكبر ، عند
استحلاله ، وعظيمة كبيرة عند فعله غير
مستحل له .

﴿٤٦ - ٤٧﴾ ﴿وقفينا على آثامهم
بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من
التوراة وآتيناها الإنجيل فيه هدى ونور
ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى
وموعظة للمتقين﴾ وليحكم أهل
الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم
بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾
أي : وآتينا هؤلاء الأنبياء والمرسلين ،
الذين يحكمون بالتوراة بعبدنا ورسولنا
عيسى ابن مريم ، روح الله وكلمته
التي ألقاها إلى مريم .

بعثه الله مصدقاً لما بين يديه من
التوراة ، فهو شاهد لموسى ولما جاء به
من التوراة بالحق والصدق ، ومؤيد
لدعوته ، وحاكم بشريعته ، وموافق له
في أكثر الأمور الشرعية .

وقد يكون عيسى عليه السلام أخف
في بعض الأحكام ، كما قال تعالى عنه

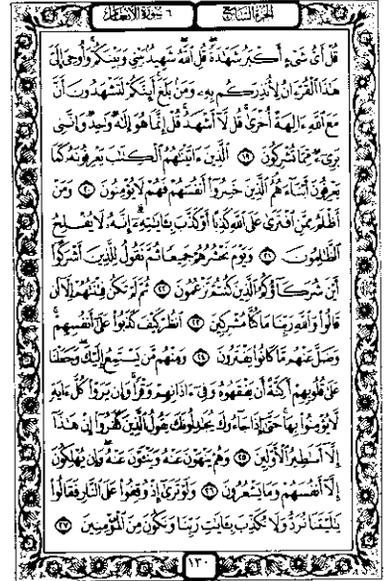
الباطل ، لأجل متاع الدنيا القليل ،
وهذه الآفات إذا سلم منها العالم فهو
من توفيقه وسعادته ، بأن يكون همه
الاجتهاد في العلم والتعليم ، ويعلم
أن الله قد استحفظه ما^(١) أودعه من
العلم واستشهده عليه ، وأن يكون
خائفاً من ربه ، ولا يمتعه خوف الناس
وخشيتهم من القيام بما هو لازم له ،
وأن لا يؤثر الدنيا على الدين .

كما أن علامة شقاوة العالم أن يكون
مخلداً للبطالة ، غير قائم بما أمر به ،
ولا مبال بما استحفظ عليه ، قد أهمله
وأضاعه ، قد باع الدين بالدنيا ، قد
ارتشى في أحكامه ، وأخذ المال على
فتاويه ، ولم يعلم عباد الله إلا بأجرة
وجعالة .

فهذا قد من الله عليه بمنة عظيمة ،
كفرها ودفع خطأ جسيماً ، محروماً منه
غيره ، فنسألك اللهم علماً نافعاً ،
وعملاً متقبلاً ، وأن ترزقنا العفو
والعافية من كل بلاء يا كريم .

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ من
الحق المبين ، وحكمه بالباطل الذي
يعلمه ، لغرض من أغراضه الفاسدة
﴿فأولئك هم الكافرون﴾ فالحكم بغير
ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر ، وقد
يكون كفراً يتقل عن الملة ، وذلك إذا
اعتقد حله وجوازه . وقد يكون كبيرة
من كبائر الذنوب ، ومن أعمال الكفر
قد اسحق من فعله العذاب الشديد .

﴿٤٥﴾ ﴿وكتبنا عليهم فيها أن
النفس بالنفس والعين بالعين والأنف
بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن
والجروح قصاص فمن تصدق به فهو
كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله
فأولئك هم الظالمون﴾ هذه الأحكام من
جملة الأحكام التي في التوراة ، يحكم
بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا
والربرانيون والأحبار . إن الله أوجب
عليهم فيها أن النفس - إذا قتلت -
تقتل بالنفس بشرط العمد والمكافأة ،
والعين تقلع بالعين ، والأذن تؤخذ
بالأذن ، والسن ينزع بالسن . ومثل



وذلك الحكم الصادر منهم الموافق
للحق ﴿بما استحفظوا من كتاب الله
وكانوا عليه شهداء﴾ أي : بسبب
أن الله استحفظهم على كتابه ، وجعلهم
أمناء عليه ، وهو أمانة عندهم ، أوجب
عليهم حفظه من الزيادة والنقصان
والكتمان ، وتعليمه لمن لا يعلمه .

وهم شهداء عليه ، بحيث إنهم
المرجوع إليهم فيه ، وفيما اشبهه على
الناس منه ، فالله تعالى قد حمل أهل
العلم ، ما لم يحمله الجهال ، فيجب
عليهم القيام بأعباء ما حلوا .

وأن لا يقتدوا بالجهال ، بالإخلاق
إلى البطالة والكسل ، وأن لا يقتصروا
على مجرد العبادات القاصرة ، من أنواع
الذكر ، والصلاة ، والزكاة ، والحج ،
والصوم ، ونحو ذلك من الأمور ، التي
إذا قام بها غير أهل العلم سلموا
ونجوا .

وأما أهل العلم فكما أنهم مطالبون
بالقيام بما عليهم أنفسهم ، فإنهم
مطالبون أن يعلموا الناس وينبهم
على ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ،
خصوصاً الأمور الأصولية والتي يكثر
وقوعها وأن لا يخشوا الناس بل
يخشون ربهم ، ولهذا قال : ﴿فلا تخشوا
الناس واخشون ولا تشتروا آياتي ثمناً
قليلاً﴾ فتكتمون الحق ، وتظهرون

وقتها، وعلى أنه ينبغي أن لا يقتصر العبد على مجرد ما يجزىء في الصلاة وغيرها من العبادات من الأمور الواجبة، بل ينبغي أن يأتي بالمستحبات، التي يقدر عليها لتتم وتكمل، ويحصل بها سبق.

﴿إلى الله مرجعكم جميعاً﴾ الأمم السابقة واللاحقة، كلهم سيجمعهم الله ليوم لا ريب فيه. ﴿فينبئكم بما كنتم فيه مختلفون﴾ من الشرائع والأعمال، فيشيب أهل الحق والعمل الصالح، ويعاقب أهل الباطل والعمل السيء.

﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾ هذه الآية هي التي قيل: إنها ناسخة لقوله: ﴿فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾.

والصحيح: أنها ليست بناسخة، وأن تلك الآية تدل على أنه ﷺ غير بين الحكم بينهم وبين عدمه، وذلك لعدم قصدهم بالتحاكم للحق.

وهذه الآية تدل على أنه إذا حكم، فإنه يحكم بينهم بما أنزل الله من الكتاب والسنة، وهو القسط الذي تقدم أن الله قال: ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط﴾ ودل هذا على بيان القسط، وأن مادته هو ما شرعه الله من الأحكام، فإنها المشتملة على غاية العدل والقسط، وما خالف ذلك فهو جور وظلم.

﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ كرر النهي عن اتباع أهوائهم لشدة التحذير منها. ولأن ذلك في مقام الحكم والفتوى، وهو أوسع، وهذا في مقام الحكم وحده، وكلاهما يلزم فيه أن لا يتبع أهواءهم المخالفة للحق، ولهذا قال: ﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ أي: إياك والاعتزاز بهم، وأن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل [الله] إليك، فصار اتباع أهوائهم سبباً موصلاً إلى ترك الحق الواجب، والفرض اتباعه.

﴿فإن تولوا﴾ عن اتباعك واتباع الحق ﴿فاعلم﴾ أن ذلك عقوبة عليهم وأن الله يريد ﴿أن يصيبهم ببعض

حق جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه.

وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين، وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة، والأحكام الذي عرضت عليه الكتب السابقة، فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود، قد دخله التحريف والتبديل، وإلا فلو كان من عند الله، لم يخالفه.

﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ من الحكم الشرعي الذي أنزله الله عليك. ﴿ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾ أي: لا تجعل اتباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحق بدلاً عما جاءك من الحق فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

﴿لكل جعلنا منكم﴾ أيها الأمم جعلنا ﴿شرعة ومنهاجاً﴾ أي: سبيلاً وسنة، وهذه الشرائع التي تختلف باختلاف الأمم، هي التي تتغير بحسب تغير الأزمنة والأحوال، وكلها ترجع إلى العدل في وقت شرعتها، وأما الأصول الكبار التي هي مصلحة وحكمة في كل زمان، فإنها لا تختلف، فتشرع في جميع الشرائع. ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ تبعاً لشرعة واحدة، لا يختلف متأخرها و[لا] ومقدمها.

﴿ولكن ليلوكم فيما آتاكم﴾ فيختبركم وينظر كيف تعملون، ويتبى كل أمة بحسب ما تقتضيه حكمته، ويؤتي كل أحد ما يليق به، وليحصل التنافس بين الأمم فكل أمة تحرص على سبق غيرها، ولهذا قال: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي: بادروا إليها وأكملوها، فإن الخيرات الشاملة لكل فرض ومستحب، من حقوق الله وحقوق عباده، لا يصير فاعلها سابقاً لغيره مستولياً على الأمر، إلا بأمرين:

المبادرة إليها، وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها ويعرض عارضها، والاجتهاد في أدائها كاملة على الوجه المأمور به. ويستدل بهذه الآية، على المبادرة لأداء الصلاة وغيرها في أول

أنه قال لبني إسرائيل: ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾.

﴿وآتيناه الإنجيل﴾ الكتاب العظيم المتمم للتوراة. ﴿فيه هدى ونور﴾ يهدي إلى الصراط المستقيم، ويبين الحق من الباطل. ﴿ومصدقاً لما بين يديه من التوراة﴾ بتثبيتها والشهادة لها والموافقة. ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ فإنهم الذين ينتفعون بالهدى، ويتعظون بالمواعظ، ويرتعدون عما لا يليق.

﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ أي: يلزمهم التقيد بكتابتهم، ولا يجوز لهم العدول عنه. ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾

﴿٤٨ - ٥٠﴾ ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه مختلفون﴾ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ يقول تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب﴾ الذي هو القرآن العظيم، أفضل الكتب وأجلها.

﴿بالحق﴾ أي: إنزالاً بالحق، ومشتقاً على الحق في أخباره وأوامره ونواهي. ﴿مصدقاً لما بين يديه من الكتاب﴾ لأنه شهد لها ووافقها، وطابقت أخباره أخبارها، وشرائعه الكبار شرائعها، وأخبرته به، فصار وجوده مصداقاً لخبرها.

﴿ومهيمناً عليه﴾ أي: مشتقاً على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية. فهو الكتاب الذي تتبع كل

فبطل كبدهم وبطلت أعمالهم ﴿ في الدنيا ﴾ فأصبحوا خاسرين ﴿ حيث فاتهم مقصودهم، وحضرهم الشقاء والعذاب .

﴿ ٥٤ ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعززة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ يخبر تعالى أنه الغني عن العالمين، وأنه من يرتد عن دينه فلن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه . وأن الله عبادة مخلصين، ورجالاً صادقين، قد تكفل الرحمن الرحيم بهديتهم، ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافاً، وأقوامهم نفوساً، وأحسنهم أخلاقاً، أجل صفاتهم أن الله يحبهم ويحبونه . فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة، تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبداً يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووقفه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد .

ومن لوازم محبة العبد لربه، أنه لا بد أن يتصف بمتابعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً، في أقواله وأعماله وجميع أحواله، كما قال تعالى: ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله ﴾ . كما أن من لازم^(١) محبة الله للعبد، أن يكثُر العبد من التقرب إلى الله بالفرائض والتواضع، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن الله: «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال [عبدي] يتقرب إلي بالتواضع حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» .

بضركم، بل لا يدخرون من مجهودهم شيئاً على إضلالكم، فلا يتولاهم إلا من هو مثلهم، ولهذا قال: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم . والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً، حتى يكون العبد منهم .

﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي: الذين وصفهم الظلم، وإليه يرجعون، وعليه يعولون . فلو جنتهم بكل آية ما تبعوك، ولا انقادوا لك . ولما نهى الله المؤمنين عن توليهم، أخبر أن من يدعي الإيمان طائفة تواليهم، فقال: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك ونفاق، وضعف إيمان، يقولون: إن تولينا إياهم للحاجة، فإننا نخشى أن نصيبنا دائرة ﴿ أي: تكون الدائرة لليهود والنصارى، فإذا كانت الدائرة لهم، فإذا لنا معهم يد يكافؤونا عنها، وهذا سوء ظن منهم بالإسلام، قال تعالى - راداً لظنهم السيئ -: ﴿فعمى الله أن يأتي بالفتح﴾ الذي يعز الله به الإسلام على اليهود والنصارى، ويقهرهم المسلمون ﴿أو أمر من عنده﴾ يأس به المنافقون من ظفر الكافرين من اليهود وغيرهم ﴿فصبحوا على ما أسروا﴾ أي: أضمروا ﴿في أنفسهم نادمين﴾ على ما كان منهم وضرهم بلا نفع حصل لهم، فحصل الفتح الذي نصر الله به الإسلام والمسلمين، وأذل به الكفر والكافرين، فندموا وحصل لهم من الغم ما الله به عليم .

﴿ويقول الذين آمنوا﴾ متعجبين من حال هؤلاء الذين في قلوبهم مرض: ﴿أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم﴾ أي: حلفوا وأكدوا حلفهم، وغلظوه بأنواع التأكيدات: إنهم لمعكم في الإيمان، وما يلزمه من النصرة والمحبة والموالاتة، ظهر ما أضمره، وتبين ما أسروه، وصار كيدهم الذي كادوه، وظنهم الذي ظنوه بالإسلام وأهله - باطلاً،

ذنوبهم ﴿ فإن للذنوب عقوبات عاجلة وآجلة، ومن أعظم العقوبات أن يبئل العبد ويزين له ترك اتباع الرسول، وذلك لفسقه .

﴿ وإن كثيراً من الناس لفاسقون ﴾ أي: طبيعتهم الفسق والخروج عن طاعة الله واتباع رسوله .

﴿ أفحكهم الجاهلية يبغون ﴾ أي: أنيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية، وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله . فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية . فمن أعرض عن الأول ابتلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغي، ولهذا أضافه الله للجاهلية، وأما حكم الله تعالى فمبني على العلم، والعدل والقسط، والنور والهدى .

﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ فالموقف هو الذي يعرف الفرق بين الحكمين ويميز - بإيقانه - ما في حكم الله من الحسن والبهاء، وأنه يتعين - عقلاً وشرعاً - اتباعه .

واليقين، هو العلم التام الموجب للعمل .

﴿ ٥١ - ٥٣ ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ فتري الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن نصيبنا دائرة فعمى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ﴿ ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين ﴾ يرشد تعالى عبادة المؤمنين حين بيئ لهم أحوال اليهود والنصارى وصفاتهم غير الحسنة، أن لا يتخذوهم أولياء . فإن بعضهم أولياء بعض يتناصرون فيما بينهم ويكونون بدأ على من سواهم، فأنتم لا تتخذوهم أولياء، فإنهم الأعداء على الحقيقة ولا يبألون

(١) في ب: لوازم.

ومن لوازم محبة الله معرفته تعالى، والإكثار من ذكره، فإن المحبة بدون معرفة بالله ناقصة جداً، بل غير موجودة وإن وجدت دعواها، ومن أحب الله أكثر من ذكره، وإذا أحب الله عبداً قبل منه اليسير من العمل، وغفر له الكثير من الزلل.

ومن صفاتهم أنهم ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورفقهم وراقتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم وعلى الكافرين بالله، المعاندين لأياته، المكذبين لرسوله - أعزة قد

اجتمعت همهم وعزائهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم، قال تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ وقال تعالى: ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ فالغلظة والشدة على أعداء الله مما يقرب العبد إلى الله، ويوافق العبد ربه في سخطه عليهم، ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة دعوتهم إلى الدين الإسلامي والتي هي أحسن. فتجتمع الغلظة عليهم، واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم ونفعه عائد إليهم.

﴿يجاهدون في سبيل الله﴾ بأموالهم وأنفسهم، بأقوالهم وأفعالهم. ﴿ولا يخافون لومة لائم﴾ بل يقدمون رضابهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين، وهذا يدل على قوة همهم وعزائهم، فإن ضعيف القلب ضعيف الهمة، تنتقص عزيمته عند لوم اللائمين، وتفتر قوته عند عدل العاذلين. وفي قلوبهم تعبد لغير الله، بحسب ما فيها من مراعاة الخلق وتقدير رضاهم ولومهم على أمر الله، فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله، حتى لا يخاف في الله لومة لائم.

ولما مدحهم تعالى بما من به عليهم من الصفات الجليلة والمناقب العالية، المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير - أخير أن هذا من فضله عليهم وإحسانه لئلا يعجبوا بأنفسهم، وليشكروا الذي من عليهم بذلك ليزيدهم من فضله، وليعلم غيرهم أن فضل الله تعالى ليس عليه حجاب، فقال: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ أي: واسع الفضل والإحسان، جزيل المن، قد عمت رحته كل شيء، ويوسع على أوليائه من فضله، ما لا يكون لغيرهم، ولكنه عليم بمن يستحق الفضل فيعطيه، فالله أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وفرعاً.

﴿٥٥ - ٥٦﴾ ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ لما نهى عن ولاية الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم، وذكر مآل توليهم أنه الخسران المبين، أخير تعالى من يجب ويتعين توليه، وذكر فائدة ذلك ومصلحته فقال: ﴿إنما وليكم الله ورسوله﴾. فولاية الله تدرك بالإيمان والتقوى. فكل من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً، ومن كان ولياً لله فهو ولي لرسوله، ومن تولى الله ورسوله كان تمام ذلك تولى من تولاها، وهم المؤمنون الذين قاموا بالإيمان ظاهراً وباطناً، وأخلصوا للمعبود، بإقامتهم الصلاة بشروطها وفروضها ومكملاتها، وأحسنوا للخلق، وبذلوا الزكاة من أموالهم لمستحقيها منهم.

وقوله: ﴿وهم راكعون﴾ أي: خاضعون لله ذليلون. فإداعة الخصر في قوله: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ تدل على أنه يجب قصر الولاية على المذكورين، والتبري من ولاية غيرهم.

ثم ذكر فائدة هذه الولاية فقال: ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا

بَلِّغْ لِلنَّاسِ مَا نزلَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْوَحْيِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٦٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٦٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٦٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٧٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٧٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٨٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٨٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٨٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾

فإن حزب الله هم الغالبون﴾ أي: فإنه من الحزب المصافين إلى الله إضافة عبودية وولاية، وحزبه هم الغالبون الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وإن جنودنا لهم الغالبون﴾.

وهذه بشارة عظيمة لمن قام بأمر الله وصار من حزبه وجنده، أن له الغلبة، وإن أديل عليه في بعض الأحيان لحكمة يريد بها الله تعالى، فأخر أمره، الغلبة والانتصار، ومن أصدق من الله قبيلاً.

﴿٥٧ - ٥٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ وإذا ناديتهم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ ينهى عباده المؤمنين عن اتخاذ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن سائر الكفار أولياء يحببهم ويتولونهم، ويبعدون لهم^(١) أسرار المؤمنين، ويعاونونهم على بعض أمورهم التي تضر الإسلام والمسلمين، وأن ما معهم من الإيمان يوجب عليهم ترك موالاتهم، ويحثهم على معاداتهم، وكذلك التزامهم لتقوى الله التي هي امتثال أوامره واجتناب زواجره مما

(١) كذا في ب، وفي أ: ويبدون إليهم.



﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾ أي :
يجتهدون ويجدون، ولكن بالفساد في
الأرض، يعمل المعاصي، والدعوة إلى
دينهم الباطل، والتعويق عن الدخول
في الإسلام ﴿والله لا يحب المفسدين﴾
بل يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم
على ذلك [ثم قال تعالى] .

﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا
لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم
جنات النعيم﴾ وهذا من كرمه وجوده،
حيث ذكر قبائح أهل الكتاب ومعاييبهم
وأقوالهم الباطلة، دعاهم إلى التوبة،
وأهم لو آمنوا بالله وملائكته، وجميع
كتبه، وجميع رسله، واتقوا المعاصي،
لكفر عنهم سيئاتهم ولو كانت ما
كانت، ولأدخلهم جنات النعيم التي
فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين .

﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل
وما أنزل إليهم من ربهم﴾ أي : قاموا
بأوامرهما ونواهيهما، كما ندهم الله
وحشمهم .

ومن إقامتهما الإيمان بما دعيا إليه،
من الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن، فلو
قاموا بهذه النعمة العظيمة التي أنزلها
ربهم إليهم، أي : لأجلهم وللاعتناء
بهم ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت
أرجلهم﴾ أي : لأدرك الله عليهم

ولا يخاطر على بال العبد، ويلطف بهم
في جميع أمورهم، ويوصل إليهم من
الإحسان، ويدفع عنهم من النقم ما
لا يشعرون بكثير منه، فسبحان من
كل النعم التي بالعباد فمنه، وإليه
يجأرون في دفع المكروه، وتبارك من
لا يحصي أحد ثنائه عليه، بل هو كما
أثنى على نفسه، وتعالى من لا يخلو
العباد من كرمه طرفة عين، بل
لا وجود لهم ولا بقاء إلا بجموده .

وقبح الله من استغنى بجهله عن
ربه، ونسبه إلى ما لا يليق بجلاله، بل
لوعامل الله اليهود القائلين تلك
المقالة، ونحوهم من حاله كحالهم
ببعض قولهم، لهلكوا، وشقوا في
دنياهم، ولكنهم يقولون تلك
الأقوال، وهو تعالى يحلم عنهم،
ويصفح، ويمهلهم ولا يمهلمهم .

وقوله : ﴿وليزيدن كثيراً منهم ما
أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾ .
وهذا أعظم العقوبات على العبد^(١)، أن
يكون الذكر الذي أنزله الله على
رسوله، الذي فيه حياة القلب
والروح، وسعادة الدنيا والآخرة،
وفلاح الدارين الذي هو أكبر منة
امتن الله بها على عباده، توجب عليهم
المبادرة إلى قبولها، والاستسلام لله
بها، وشكراً لله عليها، أن تكون لثل
هذا زيادة غي إلى غيه، وطغيان إلى
طغيانه، وكفر إلى كفره، وذلك بسبب
إعراضه عنها، ورده لها، ومعاندته
إياها، ومعارضته لها بالشبه الباطلة .

﴿والقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى
يوم القيامة﴾ فلا يتألفون،
ولا يتناصرون، ولا يتفقون على حالة
فيها مصلحتهم، بل لم يزالوا متباغضين
في قلوبهم، متعادين بأفعالهم إلى يوم
القيامة ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب﴾
ليكيدوا بها الإسلام وأهله، وأبدوا
وأعادوا، وأجلبوا بخيلهم ورجلهم
﴿أطفأها الله﴾ بخذلانهم وتفرق
جمودهم، وانتصار المسلمين عليهم .

أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله
ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب
المفسدين * ولو أن أهل الكتاب آمنوا
واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم
ولأدخلناهم جنات النعيم * ولو أنهم
أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم
من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت
أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم
ساء ما يعملون * يخبر تعالى عن مقالة
اليهود الشنيعة، وعقيدتهم الفظيعة،
فقال : ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾
أي : عن الخير والإحسان والبر .

﴿غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا﴾
وهذا دعاء عليهم بجنس مقالتهم . فإن
كلامهم متضمن لوصف الله الكريم،
بالبخل وعدم الإحسان . فجازاهم بأن
كان هذا الوصف منطبقاً عليهم .

فكانوا أبخل الناس وأقلهم
إحساناً، وأسوأهم ظناً بالله،
وأبعدهم الله عن رحمته التي وسعت
كل شيء، وملأت أقطار العالم العلوي
والسفلي . ولهذا قال : ﴿بل يدها
مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ لا حجر
عليه، ولا مانع يمنعه مما أراد، فإنه
تعالى قد بسط فضله وإحسانه الديني
والدنيوي، وأمر العباد أن يتعرضوا
لنصفحات جوده، وأن لا يسدوا على
أنفسهم أبواب إحسانه بمعاصيهم .

فيده^(١) سحاء الليل والنهار،
وخيره في جميع الأوقات مدارار، يفرج
كرباً، ويزيل غماً، ويغني فقيراً،
ويغك أسيراً ويحجر كسيراً، ويحجب
سائلاً، ويعطي فقيراً عائلاً، ويحجب
المضطرين، ويستجيب للسائلين .
وينعم على من لم يسأله، ويعافي من
طلب العافية، ولا يحرم من خيره
عاصياً، بل خيره يرتع فيه البر
والفاجر، ويجود على أوليائه بالتوفيق
لصالح الأعمال ثم يحمدهم عليها،
ويضيفها إليهم، وهي من جوده
ويثيبهم عليها من الثواب العاجل
والآجل ما لا يدركه الموصف،

(١) في ب : فيده .

(٢) في ب : وهذا أعظم من العقوبات على العبد .

القرآن والتوراة والإنجيل، أن سعادتهم ونجاتهم في طريق واحد، وأصل واحد، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر [العمل الصالح] (٢). فمن آمن منهم بالله واليوم الآخر، فله النجاة، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه من الأمور المخوفة، ولا هم يحزنون على ما خلفوا منها. وهذا الحكم المذكور يشمل سائر الأزمنة.

﴿٧٠ - ٧١﴾ ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون﴾ وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا ووصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا ووصموا كثير

منهم والله بصير بما يعملون﴾ يقول تعالى: ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ أي: عهدهم الثقيل بالإيمان بالله، والقيام بواجباته التي تقدم الكلام عليها في قوله: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر رسولاً﴾ إلى آخر الآيات ﴿وأرسلنا إليهم رسلاً﴾ يتوالون عليهم بالدعوة، ويتعاهدونهم بالإرشاد، ولكن ذلك لم ينجح فيهم، ولم يفد ﴿كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم﴾ من الحق كذبوه وعاندوه، وعاملوه أقيح المعاملة ﴿فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون، وحسبوا أن لا تكون فتنة﴾ أي: ظنوا أن معصيتهم وتكذيبهم لا يجير عليهم عذاباً ولا عقوبة، فاستخروا على باطلهم. ﴿فعموا ووصموا﴾ عن الحق ﴿ثم﴾ نعشهم و ﴿تاب الله عليهم﴾ حين تابوا إليه وأنبأوا ﴿ثم﴾ لم يستمروا على ذلك حتى انقلب أكثرهم إلى الحال القبيحة. ﴿فعموا ووصموا كثير منهم﴾ بهذا الوصف، والقليل استمروا على توبتهم وإيمانهم. ﴿وإنه بصير بما يعملون﴾ فيجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿٧٢ - ٧٥﴾ ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي

﴿وإن لم تفعل﴾ أي: لم تبلغ ما أنزل إليك من ربك ﴿فما بلغت رسالته﴾ أي: فما امتثلت أمره.

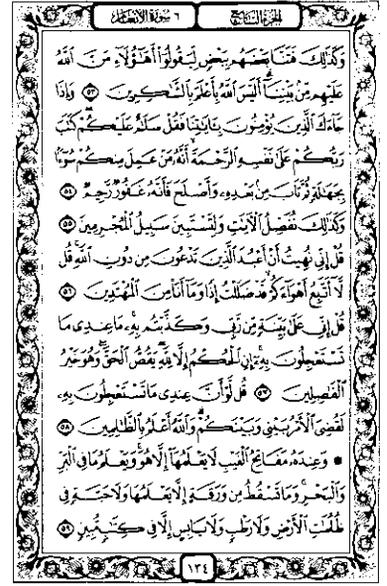
﴿والله يعصمك من الناس﴾ هذه حماية وعصمة من الله لرسوله من الناس، وأنه ينبغي أن يكون حرصك على التعليم والتبليغ، ولا يثنيك عنه خوف من المخلوقين فإن نواصيهم بيد الله وقد تكفل بعصمتك، فأنت إنما عليك البلاغ المبين، فمن اهتدى فلنفسه، وأما الكافرون الذين لا قصد لهم إلا اتباع أهوائهم فإن الله لا يهديهم ولا يوفهم للخير، بسبب كفرهم.

﴿٦٨﴾ ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين﴾ أي: قل لأهل الكتاب، منادياً على ضلالهم، ومعلناً باطلهم: ﴿لستم على شيء﴾ من الأمور الدينية، فإنكم لا بالقرآن ومحمد أمتم، ولا بنبيكم وكتابتكم صدقتم، ولا بحق عسكتكم، ولا على أصل اعتمادتم ﴿حتى تقيموا التوراة والإنجيل﴾ أي: تجعلوهما قائمين بالإيمان بهما واتباعهما، والتمسك بكل ما يدعوان إليه.

﴿و﴾ تقيموا ﴿ما أنزل إليكم من ربكم﴾ الذي رباكم، وأنعم عليكم، وجعل أجل إنعامه، إنزال الكتب إليكم. فالواجب عليكم، أن تقوموا بشكر الله، وتلتزموا أحكام الله، وتقوموا بما حملتم من أمانة الله وعهده.

﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً، فلا تأس على القوم الكافرين﴾

﴿٦٩﴾ ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ يجير تعالى عن أهل الكتب (١)، من أهل



الرزق، ولا مطر عليهم السماء، وأنت لهم الأرض كما قال تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾.

﴿منهم﴾ أي: من أهل الكتاب ﴿أمة مقتصة﴾ أي: عاملة بالتوراة والإنجيل، عملاً غير قوي ولا نشيط، ﴿وكثير منهم ساء ما يعملون﴾ أي: والمسيء منهم الكثير. وأما السابقون منهم فقليل ما هم.

﴿٦٧﴾ ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها، وهو التبليغ لما أنزل الله إليه، ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ من العماند والأعمال والأقوال، والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية. فبلغ ﷺ أكمل تبليغ، ودعا وأنذر وبشّر، وبشّر، وعلم الجهال الأميين حتى صاروا من العلماء الربانيين، وبلغ بقوله وفعله وكتبه ورسله. فلم يبق خبير إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرهما عنه، وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة، فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المسلمين.

(٢) زيادة من هامش ب.

(١) في ب: الكتاب.

وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون * يخبر تعالى عن كفر النصارى بقولهم: ﴿إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ بشبهة أنه خرج من أم بلا أب، وخالف المعهود من الخلقة الإلهية، والخال أنه عليه الصلاة والسلام قد كذبهم في هذه الدعوى، وقال لهم: ﴿يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم﴾ فثبت لنفسه العبودية التامة، ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق.

وقوله: ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ دليل ظاهر على أنهما عبدان فقيران، محتاجان كما يحتاج بنو آدم إلى الطعام والشراب، فلو كانا إلهين لاستغنيا عن الطعام والشراب، ولم يحتاجا إلى شيء، فإن الإله هو الغني الخفيد.

ولما بين تعالى البرهان قال: ﴿انظر كيف نبين لهم الآيات﴾ الموضحة للحق، الكاشفة لليقين، ومع هذا لا تفيد فيهم شيئاً، بل لا يزالون على إفكهم وكذبهم وافتراءهم، وذلك ظلم وعناد منهم.

﴿٧٦﴾ ﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم﴾ أي: ﴿قل﴾ لهم أيها الرسول: ﴿أتعبدون من دون الله﴾ من المخلوقين الفقراء المحتاجين، ﴿من لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً﴾ وتدعون من انفرد بالضر والنفع والعتاء والمنع، ﴿والله هو السميع﴾ لجميع الأصوات باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات.

﴿العليم﴾ بالظواهر والبواطن، والغيب والشهادة، والأمور الماضية والمستقبلية، فالكامل تعالى الذي هذه أوصافه هو الذي يستحق أن يفرد بجميع أنواع العبادة، ويخلص له الدين.

﴿٧٧-٨١﴾ ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون * ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن

بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمة إلا منه. فكيف يجعل معه إله غيره؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ثم توعدهم بقوله: ﴿وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ ثم دعاهم إلى التوبة عما صدر منهم، وبين أنه يقبل التوبة عن عباده فقال: ﴿أفلا يتوبون إلى الله﴾ أي: يرجعون إلى ما يحبه ويرضاه من الإقرار لله بالتوحيد، وبأن عيسى عبد الله ورسوله، عما كانوا يقولونه ﴿ويستغفرونه﴾ عن ما صدر منهم ﴿والله غفور رحيم﴾ أي: يغفر ذنوب التائبين، ولو بلغت عنان السماء، ويرحمهم بقبول توبتهم، وتبديل سيئاتهم حسنات.

وصدر دعوتهم إلى التوبة بالعرض الذي هو في غاية اللطف واللين في قوله: ﴿أفلا يتوبون إلى الله﴾.

ثم ذكر حقيقة المسيح وأمه، الذي هو الحق، فقال: ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ أي: هذا غايته ومنتهاى أمره، أنه من عباد الله المرسلين، الذين ليس لهم من الأمر ولا من التشريع، إلا ما أرسلهم به الله، وهو من جنس الرسل قبله، لا مزية له عليهم، تخرجه عن البشرية إلى مرتبة الربوبية.

﴿وأمه﴾ مريم ﴿صديقة﴾ أي: هذا أيضاً غايتها، أن كانت من الصديقين الذين هم أعلى الخلق رتبة بعد الأنبياء. والصديقية، هي العلم النافع المثمر لليقين، والعمل الصالح. وهذا دليل على أن مريم لم تكن نبيية، بل أعلى أحوالها الصديقية، وكفى بذلك فضلاً وشفراً. وكذلك سائر النساء لم يكن منهن نبيية، لأن الله تعالى جعل النبوة في أكمل الصنفين، في الرجال كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا

وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون * يخبر تعالى عن كفر النصارى بقولهم: ﴿إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ بشبهة أنه خرج من أم بلا أب، وخالف المعهود من الخلقة الإلهية، والخال أنه عليه الصلاة والسلام قد كذبهم في هذه الدعوى، وقال لهم: ﴿يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم﴾ فثبت لنفسه العبودية التامة، ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق.

﴿إنه من يشرك بالله﴾ أحداً من المخلوقين، لا عيسى ولا غيره. ﴿فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار﴾ وذلك لأنه سوى الخلق بالخالق، وصرف ما خلقه الله له - وهو العبادة الخالصة - لغير من هي له، فاستحق أن يجلد في النار.

﴿وما للظالمين من أنصار﴾ ينقدونهم من عذاب الله، أو يدفعون عنهم بعض ما نزل بهم.

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ وهذا من أقوال النصارى المنصورة عندهم، زعموا أن الله ثالث ثلاثة: الله، وعيسى، ومريم، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

وهذا أكبر دليل على قلة عقول النصارى، كيف قبلوا هذه المقالة الشنعاء، والعقيدة القبيحة؟! كيف اشتبه عليهم الخالق بالمخلوقين؟! كيف خفي عليهم رب العالمين؟! قال تعالى - راداً عليهم وعلى أشباههم -: ﴿وما من إله إلا إله واحد﴾ متصف

سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون * ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون ﴿ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق﴾ أي: لا تتجاوزوا وتتعدوا الحق إلى الباطل، وذلك كقولهم في المسيح، ما تقدم حكايته عنهم.

وكغلوهم في بعض المشايخ، اتباعاً لـ ﴿أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾ أي: تقدم ضلالهم.

﴿وأضلوا كثيراً﴾ من الناس بدعوتهم إياهم إلى الدين، الذين هم عليه. ﴿وضلوا عن سواء السبيل﴾ أي: قصد الطريق، فجمعوا بين الضلال والإضلال، وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حذر الله عنهم وعن اتباع أهوائهم المردية، وآرائهم المضلة، ثم قال تعالى: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل﴾ أي: طردوا وأبعدوا عن رحمة الله ﴿على لسان داود وعيسى ابن مريم﴾ أي: بشهادتهما وإقرارهما، بأن الحججة قد قامت عليهم، وعاندوها. ﴿ذلك﴾ الكفر واللعن ﴿بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي: بمعصياتهم لله، وظلمهم لعباد الله، صار سبباً لكفرهم وبعدهم عن رحمة الله، فإن للذنوب والظلم عقوبات.

ومن معاصيهم التي أحلت بهم المثالات، وأوقعت بهم العقوبات أنهم: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾ أي: كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهى بعضهم بعضاً، فيشترك بذلك المباشر وغيره، الذي سكت عن النهي عن المنكر مع قدرته على ذلك.

وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله، وأن معصيته خفيفة عليهم، فلو كان لديهم تعظيم لربهم لغاروا لمحارمه، ولغضبوا لغضبه، وإنما كان السكوت عن المنكر - مع القدرة - موجِباً للعقوبة، لما فيه من المفاصد العظيمة:

منها: أن مجرد السكوت، فعل

معصية، وإن لم يباشرها الساكت. فإنه - كما يجب اجتناب المعصية - فإنه يجب الإنكار على من فعل المعصية. ومنها: ما تقدم أنه يدل على التهاون بالمعاصي، وقلة الاكترات بها.

ومنها: أن ذلك يجرى العصاة والفسقة على الإكثار من المعاصي إذا لم يردعوا عنها، فيزداد الشر، وتعظم المصيبة الدينية والدنيوية، ويكون لهم الشوكة والظهور، ثم بعد ذلك يضعف أهل الخير عن مقاومة أهل الشر، حتى لا يقدرّون على ما كانوا يقدرّون عليه أولاً.

ومنها: أن - في ترك^(١) الإنكار للمنكر - يندرس العلم، ويكثر الجهل، فإن المعصية - مع تكررها وصدورها من كثير من الأشخاص، وعدم إنكار أهل الدين والعلم لها - يظن أنها ليست بمعصية، وربما ظن الجاهل أنها عبادة مستحسنة، وأى: مفسدة أعظم من اعتقاد ما حرم الله، حلالاً؟ وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقاً!!!

ومنها: أن السكوت^(٢) على معصية العاصين، ربما تزينت المعصية في صدور الناس، واقتدى بعضهم ببعض، فالإنسان مولع بالاعتداء بأضرابه وبني جنسه، ومنها ومنها. فلما كان السكوت عن الإنكار بهذه المثابة، نص الله تعالى أن بني إسرائيل الكفار منهم لعنهم بمعاصيهم واعتدائهم، وخص من ذلك هذا المنكر العظيم.

﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾ ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا ﴿بالمحبة والموالاة والنصرة.

﴿لبئس ما قدمت لهم أنفسهم﴾ هذه البضاعة الكاسدة، والصفقة الخاسرة، وهي سخط الله الذي يسخط لسخطه كل شيء، والخلود الدائم في العذاب العظيم، فقد ظلمتهم أنفسهم حيث قدمت لهم هذا النزول غير الكريم، وقد ظلموا أنفسهم إذ فوتوها

النعيم المقيم.

﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء﴾. فإن الإيمان بالله وبالنبى وما أنزل إليه، يوجب على العبد موالاة ربه، وموالة أوليائه، ومعاداة من كفر به وعاداه، وأوضع في معاصيه، فشرط ولاية الله والإيمان به، أن لا يتخذ أعداء الله أولياء، وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط، فدل على انتفاء المشروط. ﴿ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾ أي: خارجون عن طاعة الله والإيمان به وبالنبى. ومن فسقهم موالاة أعداء الله.

ثم قال تعالى:

﴿٨٢-٨٦﴾ ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتمنا مع الشاهدين * وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين * فأنابهم الله بما قالوا جنت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الحميم﴾.

يقول تعالى في بيان أقرب الطائفتين إلى المسلمين، وإلى ولايتهم ومحبتهم، وأبعدهم من ذلك: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾. فهؤلاء الطائفتان على الإطلاق أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين، وأكثرهم سعيًا في إيصال الضرر إليهم، وذلك لشدة بغضهم لهم، بغياً وحسداً وعتاداً وكفراً.

﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ وذكر تعالى لذلك عدة أسباب:

منها: أن ﴿منهم قسيسين ورهباناً﴾ أي: علماء متزهدين، وعباداً في

(١) كذا في ب، وفي أ: أن في ترك.

(٢) كذا في ب، وفي أ: السكوت.

وشراب، وسرية وأمة، ونحو ذلك، فإنه لا يكون حراماً بتحريمه، لكن لو فعله فعليه كفارة يمين، كما قال تعالى: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ الآية. إلا أن تحريم الزوجة فيه كفارة ظهار، ويدخل في هذه الآية أنه لا ينبغي للإنسان أن يتجنب الطيبات ويحرمها نفسه، بل يتناولها مستعيناً بها على طاعة ربه.

﴿٨٧﴾ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ﴿٨٨﴾ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ﴿٨٩﴾ في أيمانكم التي صدرت على وجه اللغو، وهي الأيمان التي حلف بها المقسم من غير نية ولا قصد، أو عقدها يظن صدق نفسه، فإن بخلاف ذلك. ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ أي: بما عزمتم عليه، وعقدت عليه قلوبكم. كما قال في الآية الأخرى: ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ فكفارتها أي: كفارة اليمين الذي عقدتموها بقصدكم ﴿إطعام عشرة مساكين﴾.

وذلك الإطعام ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم﴾ أي: كسوة عشرة مساكين، والكسوة هي التي تجزىء في الصلاة. ﴿أو تحرير رقبة﴾ أي: عتق رقبة مؤمنة كما قيدت في غير هذا الموضع، فمتى فعل واحداً من هذه الثلاثة فقد انحلت بيمينه. ﴿فمن لم يجد﴾ واحداً من هذه الثلاثة ﴿فصيام ثلاثة أيام﴾ المذكور ﴿كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾ تكفرها وتحوها وتمنع من الإثم.

﴿واحفظوا أيمانكم﴾ عن الحلف بالله كاذباً، وعن كثرة الأيمان، واحفظوها إذا حلفتم عن الحنث فيها، إلا إذا كان الحنث خيراً، فتمام الحفظ: أن يفعل الخير، ولا يكون يمينه عرضة لذلك الخير.

﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ المينة للتحلال من الحرام، الموضحة للأحكام. ﴿لعلكم تشكرون﴾ الله حيث علمكم ما لم تكونوا تعلمون. فعلى العباد شكر الله تعالى على ما من به

من يختار دين الإسلام، ويتبين له بطلان ما كانوا عليه، وهم أقرب من اليهود والمشركين إلى دين الإسلام.

ولما ذكر ثواب المحسنين، ذكر عقاب المسيئين قال: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ لأنهم ﴿كفروا بالله، وكذبوا بآياته المبينة للحق.

﴿٨٧-٨٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ * وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ من المطاعم والمشارب، فإنها نعم أنعم الله بها عليكم، فاحدوه إذا أحلها لكم، واشكروه ولا تردوا نعمته بكفرها أو عدم قبولها، أو اعتقاد تحريمها، فتجمعون بذلك بين القول على الله الكذب، وكفر النعمة، واعتقاد الحلال الطيب حراماً خبيثاً، فإن هذا من الاعتداء.

والله قد نهى عن الاعتداء فقال: ﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ بل يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم على ذلك.

ثم أمر بضد ما عليه المشركون، الذين يحرمون ما أحل الله فقال: ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ أي: كلوا من رزقه الذي ساقه إليكم، بما يسره من الأسباب، إذا كان حلالاً لا سرقة ولا غصباً ولا غير ذلك من أنواع الأموال التي تؤخذ بغير حق، وكان أيضاً طيباً، وهو الذي لا خبث فيه، فخرج بذلك الخبيث من السباع والخبائث.

﴿واتقوا الله﴾ في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه. ﴿الذي أنتم به مؤمنون﴾ فإن إيمانكم بالله يوجب عليكم تقواه ومراعاة حقه، فإنه لا يتم إلا بذلك. ودلت الآية الكريمة على أنه إذا حرم حلالاً عليه، من طعام

الصوامع متعبدين. والعلم مع الزهد وكذلك العبادة مما يلطف القلب ويرققه، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة، فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود، وشدة المشركين.

ومنها: ﴿أنهم لا يستكبرون﴾ أي: ليس فيهم تكبر ولا عتو عن الانقياد للحق، وذلك موجب لتقريبهم من المسلمين ومن محبتهم، فإن المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر.

ومنها: أنهم ﴿إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول﴾ محمد ﷺ، أثر ذلك في قلوبهم وخشعوا له، وفاضت أعينهم بسبب ما سمعوا من الحق الذي يقنونه، فلذلك آمنوا وأقروا به فقالوا: ﴿ربنا آمنا فاكبتنا مع الشاهدين﴾ وهم أمة محمد ﷺ، يشهدون لله بالتوحيد، ولرسله بالرسالة وصحة ما جاؤوا به، ويشهدون على الأمم السابقة بالتصديق والتكذيب.

وهم عدول، شهادتهم مقبولة، كما قال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾. فكأنهم ليموا على إيمانهم ومسارعتهم فيه، فقالوا: ﴿وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ أي: وما الذي يمنعنا من الإيمان بالله، والحال أنه قد جاءنا الحق من ربنا، الذي لا يقبل الشك والريب، ونحن إذا آمنا واتبعنا الحق طمعنا أن يدخلنا الله الجنة مع القوم الصالحين، فأى: مانع يمنعنا؟ ليس ذلك موجباً للمسارعة والانقياد للإيمان وعدم التخلف عنه.

قال الله تعالى: ﴿فأنابهم الله بما قالوا﴾ أي: بما تفوهوا به من الإيمان ونطقوا به من التصديق بالحق ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك جزاء المحسنين﴾. وهذه الآيات نزلت في النصارى الذين آمنوا بمحمد ﷺ، كالنجاشي وغيره ممن آمن منهم. وكذلك لا يزال يوجد فيهم

(١) كذا في ب، وفي أ: لأنه.

(٢) في ب كتب الآية كاملة.

عليهم، من معرفة الأحكام الشرعية وتبينها.

﴿٩٠ - ٩١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾ يذم تعالى هذه الأشياء القبيحة، ويحذر أنها من عمل الشيطان، وأنها رجس. ﴿فاجتنبوه﴾ أي: اتركوه ﴿لعلكم تفلحون﴾ فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرم الله، خصوصاً هذه الفواحش المذكورة وهي الخمر وهي: كل ما خامر العقل أي: غطاه بسكره والميسر، وهو: جميع المغالبات التي فيها عوض من الجانبيين، كالمراهنة ونحوها، والأنصاب، التي هي: الأصنام والأنداد ونحوها، مما ينصب ويعبد من دون الله، والأزلام التي يستقسمون بها، فهذه الأربعة نهى الله عنها وزجر، وأخبر عن مفسادها الداعية إلى تركها واجتنابها. فمنها: أنها رجس، أي: خبث، نجس معنى، وإن لم تكن نجسة حساً.

والأمور الخبيثة مما ينبغي اجتنابها وعدم التذنب بأوضاعها.

ومنها: أنها من عمل الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان.

ومن المعلوم أن العدو يحد منه، وتحذر مصايده وأعماله، خصوصاً الأعمال التي يعملها ليقع فيها عدوه، فإنها فيها هلاكه، فالحزم كل الحزم البعد عن عمل العدو المبين، والحذر منها، والخوف من الوقوع فيها.

ومنها: أنه لا يمكن الفلاح للعبد إلا باجتنابها، فإن الفلاح هو: الفوز بالمطلوب المحبوب، والنجاة من المرهوب، وهذه الأمور مانعة من الفلاح ومعوقه له.

ومنها: أن هذه موجبة للعداوة والبغضاء بين الناس، والشيطان حريص على بثها، خصوصاً الخمر

والميسر، ليقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء.

فإن في الخمر من انغلاب العقل وذهاب حجاء، ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه المؤمنين، خصوصاً إذا اقترن بذلك من السباب ما هو من لوازم شارب الخمر، فإنه ربما أوصل إلى القتل. وما في الميسر من غلبة أحدهما للآخر، وأخذ ماله الكثير في غير مقابلة، ما هو من أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء.

ومنها: أن هذه الأشياء تصد القلب، ويتبعه البدن عن ذكر الله وعن الصلاة، اللذين خلق لهما العبد، وبهما سعادته، فالخمر والميسر، يصدانه عن ذلك أعظم صد، ويشغل قلبه، ويذهل له في الاشتغال بها، حتى يمضي عليه مدة طويلة وهو لا يدري أين هو.

فأي: معصية أعظم وأقبح من معصية تدنس صاحبها، وتجعله من أهل الخبث، وتوقعه في أعمال الشيطان وشياكه، فينقاد له كما تنقاد الهيمة الذليلة لراعيها، وتحول بين العبد وبين فلاحه، وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة!! فهل فوق هذه المفاصد شيء أكبر منها!!

ولهذا عرض تعالى على العقول السليمة النهي عنها، عرضاً بقوله: ﴿فهل أنتم منتهون﴾. لأن العاقل - إذا نظر إلى بعض تلك المفاصد - انزجر عنها وكفت نفسه، ولم يجتجج إلى وعظ كثير ولا زجر بليغ.

﴿٩٢﴾ ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ طاعة الله وطاعة رسوله واحدة، فمن أطاع الله فقد أطاع الرسول، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله. وذلك شامل للقيام بما أمر الله به ورسوله من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة، الواجبة والمستحبة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق خلقه، والانتهاز عما نهى الله ورسوله عنه كذلك.

وهذا الأمر أعم الأوامر، فإنه كما ترى يدخل فيه كل أمر ونهي، ظاهر وباطن، وقوله: ﴿واحذروا﴾ أي: من معصية الله ومعصية رسوله، فإن في ذلك الشر والخسران المبين. ﴿فإن توليتم﴾ عما أمرتم به ونهيتم عنه. ﴿فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ وقد أدى ذلك. فإن اهتديتم فلا تنفسكم، وإن أسأتم فعليها، والله هو الذي يجاسبكم، والرسول قد أدى ما عليه وما حمل به.

﴿٩٣﴾ ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين﴾ لما نزل تحريم الخمر والنهي الأكيد والتشديد فيه، تمنى أناس من المؤمنين أن يعلموا حال إخوانهم الذين ماتوا على الإسلام قبل تحريم الخمر وهم يشربونها.

فأنزل الله هذه الآية، وأخبر تعالى أنه ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح﴾ أي: حرج وإثم ﴿فيما طعموا﴾ من الخمر والميسر قبل تحريمهما.

ولما كان نفي الجناح يشمل المذكورات وغيرها، قيد ذلك بقوله: ﴿إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: بشرط أنهم تاركون للمعاصي، مؤمنون بالله إيماناً صحيحاً، موجباً لهم عمل الصالحات، ثم استمروا على ذلك. وإلا فقد يتصف العبد بذلك في وقت دون آخر. فلا يكفي حتى يكون كذلك حتى يأتيه أجله، ويدوم على إحسانه، فإن الله يحب المحسنين في عبادة الخالق، المحسنين في نفع العبيد، ويدخل في هذه الآية الكريمة، من طعم المحرم، أو فعل غيره بعد التحريم، ثم اعترف بذنبه وتاب إلى الله، واتقى وأمن وعمل صالحاً، فإن الله يغفر له، ويرتفع عنه الإثم في ذلك.

﴿٩٤ - ٩٦﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا ليلنؤنكم الله بشيء من الصيد تناله

وَالَّذِي يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ يَأْكُلُ مِنْهُ وَمَنْ يُكَلِّمْهُ فَالَّذِي كَلَّمَهُ مِنْهُ لَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣٥﴾
 وَالَّذِي يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ يَأْكُلُ مِنْهُ وَمَنْ يُكَلِّمْهُ فَالَّذِي كَلَّمَهُ مِنْهُ لَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣٥﴾
 وَالَّذِي يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ يَأْكُلُ مِنْهُ وَمَنْ يُكَلِّمْهُ فَالَّذِي كَلَّمَهُ مِنْهُ لَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣٥﴾
 وَالَّذِي يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ يَأْكُلُ مِنْهُ وَمَنْ يُكَلِّمْهُ فَالَّذِي كَلَّمَهُ مِنْهُ لَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣٥﴾
 وَالَّذِي يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ يَأْكُلُ مِنْهُ وَمَنْ يُكَلِّمْهُ فَالَّذِي كَلَّمَهُ مِنْهُ لَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣٥﴾
 وَالَّذِي يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ يَأْكُلُ مِنْهُ وَمَنْ يُكَلِّمْهُ فَالَّذِي كَلَّمَهُ مِنْهُ لَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣٥﴾
 وَالَّذِي يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ يَأْكُلُ مِنْهُ وَمَنْ يُكَلِّمْهُ فَالَّذِي كَلَّمَهُ مِنْهُ لَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣٥﴾
 وَالَّذِي يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ يَأْكُلُ مِنْهُ وَمَنْ يُكَلِّمْهُ فَالَّذِي كَلَّمَهُ مِنْهُ لَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣٥﴾
 وَالَّذِي يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ يَأْكُلُ مِنْهُ وَمَنْ يُكَلِّمْهُ فَالَّذِي كَلَّمَهُ مِنْهُ لَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣٥﴾
 وَالَّذِي يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ يَأْكُلُ مِنْهُ وَمَنْ يُكَلِّمْهُ فَالَّذِي كَلَّمَهُ مِنْهُ لَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣٥﴾

لأجل مخافة الناس، فلا يثاب على ذلك.

ثم صرح بالنهي عن قتل الصيد، في حال الإحرام، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾ أي: محرمون في الحج والعمرة، والنهي عن قتله يشمل النهي عن مقدمات القتل، وعن المشاركة في القتل، والدلالة عليه، والإعانة على قتله، حتى إن من تمام ذلك أنه ينهى المحرم عن أكل ما قتل أو صيد لأجله، وهذا كله تعظيم لهذا النسك العظيم، أنه يحرم على المحرم قتل وصيد ما كان حلالاً له قبل الإحرام.

وقوله: ﴿ومن قتله منكم متعمداً﴾

أي: قتل صيداً عمداً ﴿ف﴾ عليه جزاء مثل ما قتل من النعم ﴿أي: الإبل، أو البقر، أو الغنم، فينظر ما يشبه شيئاً من ذلك، فيجيب عليه مثله، يذبحه ويتصدق به. والاعتبار بالمثالة أن يحكم به ذوا عدل منكم﴾ أي: عدلان يعرفان الحكم، ووجه الشبه، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم، حيث قضوا بالحمامة شاة، وفي النعامة بدنة، وفي بقر الوحش - على اختلاف أنواعه - بقرة، وهكذا كل ما يشبه شيئاً من النعم، ففيه مثله، فإن لم يشبه شيئاً ففيه قيمته، كما هو القاعدة في المتلفات، وذلك الهدى لا بد أن يكون هدياً بالغ الكعبة﴾ أي: يذبح في الحرم.

﴿أو كفارة طعام مساكين﴾ أي: كفارة ذلك الجزاء طعام مساكين، أي: يجعل مقابلة الثلث من النعم، طعام يطعم المساكين.

قال كثير من العلماء: يقوم الجزاء، فيشتري بقيمته طعام، فيطعم كل مسكين مذبّر أو نصف صاع من غيره. ﴿أو عدل ذلك﴾ الطعام ﴿صياماً﴾ أي: يصوم عن إطعام كل مسكين يوماً. ﴿ليذوق﴾ بإيجاب الجزاء المذكور عليه ﴿وبال أمره﴾ ﴿ومن عاد﴾ بعد

أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم * يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام * أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً واتقوا الله الذي إليه تحشرون * هذا من منن الله على عباده، أن أخبرهم بما سيفعل قضاء وقدرأ، ليطيعوه ويقدموا على بصيرة، ويهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لا بد أن يختبر الله إيمانكم.

﴿ليبلونكم الله بشيء من الصيد﴾ أي: بشيء غير كثير، فتكون محنة يسيرة، تخفيفاً منه تعالى ولطفاً، وذلك الصيد الذي يبتليكم الله به ﴿تناله أيديكم ورماحكم﴾ أي: تتمكنون من صيده، ليمت بذلك الابتلاء، لا غير مقدور عليه بيد ولا رمح، فلا يبقى للابتلاء فائدة.

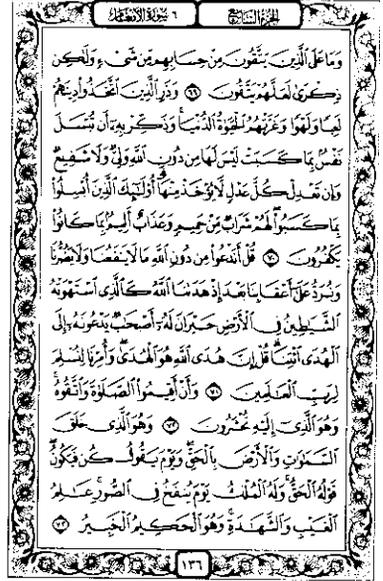
ثم ذكر الحكمة في ذلك الابتلاء، فقال: ﴿ليعلم الله﴾ علماً ظاهراً للخلق يترتب عليه الثواب والعقاب ﴿من يخافه بالغيب﴾ فيكف عما نهى الله عنه مع قدرته عليه وتمكنه، فيشبهه الثواب الجزيل لمن لا يخافه بالغيب، فلا يرتد عن معصية تعرض له فيصطاد ما تمكن منه ﴿فمن اعتدى﴾ منكم ﴿بعد ذلك﴾ البيان، الذي قطع الحجج، وأوضح السبيل. ﴿فله عذاب أليم﴾ أي: مؤلم موجه، لا يقدر على وصفه إلا الله، لأنه لا عذر لذلك المعتدي، والاعتبار بمن يخافه بالغيب، وعدم حضور الناس عنده. وأما إظهار مخافة الله عند الناس، فقد يكون ذلك،

ذلك ﴿فيستقم الله منه، والله عزيز ذو انتقام﴾.

وإيمان نص الله على المتعمد لقتل الصيد، مع أن الجزاء يلزم المتعمد والمخطيء، كما هو القاعدة الشرعية - أن التلغف للنفوس والأموال المحترمة، فإنه يضمنها على أي: حال كان، إذا كان إتلافه بغير حق، لأن الله رتب عليه الجزاء والعقوبة والانتقام، وهذا للمتعمد. وأما المخطيء فليس عليه عقوبة، إنما عليه الجزاء، [هذا جواب الجمهور من هذا القيد الذي ذكره الله. وطائفة من أهل العلم يرون تخصيص الجزاء بالمتعمد وهو ظاهر الآية. والفرق بين هذا وبين التضمنين في الخطأ في النفوس والأموال في هذا الموضع الحق فيه الله، فكما لا إثم لا جزاء لإتلافه نفوس آدميين وأموالهم] (١).

ولما كان الصيد يشمل الصيد البري والبحري، استثنى تعالى الصيد البحري فقال: ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه﴾ أي: أحل لكم - في حال إحرامكم - صيد البحر، وهو الحلي من حيواناته وطعامه، وهو الميت منها، فدل ذلك على حل ميتة البحر. ﴿متاعاً لكم وللسيارة﴾ أي: الفائدة في إباحتها

(١) ما بين القوسين زيادة من هامش أ، وجاء في هامش ب بدلاً منها بخط المؤلف: (هذا قول جمهور العلماء، والصحيح ما صرحت به الآية أنه لا جزاء على غير المتعمد كما لا إثم عليه).



﴿١٠٠﴾ ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون﴾ أي: ﴿قل﴾ للناس محذراً عن الشر ومرغباً في الخير: ﴿لا يستوي الخبيث والطيب﴾ من كل سيء، فلا يستوي الإيمان والكفر، ولا الطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة، ولا المال الحرام بالمال الحلال.

﴿ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ فإنه لا ينفع صاحبه شيئاً، بل يضره في دينه ودنياه.

﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون﴾ فأمر أولي الألباب، أي: أهل العقول الوافية، والآراء الكاملة، فإن الله تعالى يوجه إليهم الخطاب. وهم الذين يؤبه لهم، ويرجى أن يكون فيهم خير.

ثم أخبر أن الفلاح متوقف على التقوى التي هي موافقة الله في أمره ونهيه، فمن اتقاه أفلح كل الفلاح، ومن ترك تقواه حصل له الخسران وفاته الأرباح.

﴿١٠١ - ١٠٢﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفورٌ حلِيمٌ﴾ قد سألتهم قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴿ينهى عباده المؤمنين عن سؤال الأشياء التي إذا بينت لهم ساءتهم وأحزنتهم، وذلك كسؤال بعض المسلمين لرسول الله ﷺ عن آياتهم، وعن حالهم في الجنة أو النار، فهذا ربما أنه لو بين للسائل لم يكن له فيه خير، وكسؤالهم للأموال غير الواقعة.

وكالسؤال الذي يترتب عليه تشديدات في الشرع ربما أخرجت الأمة، وكالسؤال عما لا يعني، فهذه الأسئلة، وما أشبهها هي المنهي عنها، وأما السؤال الذي لا يترتب عليه شيء

ويجتمع فيه من كل فح عميق جميع أجناس المسلمين، فيتعارفون ويستعين بعضهم ببعض، ويتشاورون على المصالح العامة، وتتعقد بينهم الروابط في مصالحهم الدنيوية والدينية.

قال تعالى: ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ ومن أجل كون البيت قياماً للناس قال من قال من العلماء: إن حج بيت الله فرض كفاية في كل سنة. فلو ترك الناس حجه لأثم كل قادر، بل لو ترك الناس حجه لزال ما به قوامهم، وقامت القيامة.

وقوله: ﴿والهدي والقلائد﴾ أي: وكذلك جعل الهدي والقلائد - التي هي أشرف أنواع الهدي - قياماً للناس، ينتفعون بها ويشابون عليهما. ﴿ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض، وأن الله بكل شيء عليم﴾.

فمن علمه أن جعل لكم هذا البيت الحرام، لما يعلمه من مصالحكم الدنيوية والدينية.

﴿اعلموا أن الله شديد العقاب﴾ وأن الله غفور رحيم ﴿أي: ليكن هذان العلمان موجودين في قلوبكم على وجه الجزم واليقين، تعلمون أنه شديد العقاب العاجل والآجل على من عصاه، وأنه غفور رحيم لمن تاب إليه وأطاعه. فيثمر لكم هذا العلم الخوف من عقابه، والرجاء لغفرته وثوابه، وتعملون على ما يقتضيه الخوف والرجاء.

ثم قال تعالى: ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ وقد بلغ كما أمر، وقام بوظيفته وما سوى ذلك، فليس له من الأمر شيء. ﴿والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ فيجازيكم بما يعلمه تعالى منكم.

لكم أنه لأجل انتفاعكم وانتفاع رفقتمكم الذين يسبرون معكم. ﴿وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً﴾. ويؤخذ من لفظ «الصيد» أنه لا بد أن يكون وحشياً، لأن الإنسي ليس بصيد.

وماكولاً، فإن غير المأكول لا يصاد ولا يطلق عليه اسم الصيد. ﴿واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾ أي: اتقوه بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، واستعينوا على تقواه بعلمكم أنكم إليه تحشرون. فيجازيكم، هل قمتم بتقواه فيثيبكم الثواب الجزيل، أم لم تقوموا بها فيعاقبكم؟

﴿٩٧ - ٩٩﴾ ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم﴾ ﴿اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم﴾ ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴿يخبر تعالى أنه جعل الكعبة البيت الحرام قياماً للناس﴾. يقوم بالقيام بتعظيمه دينهم ودنياهم، فبذلك يتم إسلامهم، وبه تحط أوزارهم، وتحصل لهم - بقصد - العطايا الجزيلة، والإحسان الكثير، وبسببه تنفق الأموال، وتتفحم^(١) - من أجله - الأهوال.

(١) في ب: وتفتحم.

من ذلك فهذا^(١) مأمور به، كما قال تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾.

﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ أي: وإذا وافق سؤالكم عمله فسألتم عنها حين ينزل عليكم القرآن، فتسألون عن آية أشكلت، أو حكم خفي وجهه عليكم، في وقت يمكن فيه نزول الوحي من السماء، تبد لكم، أي: تبين لكم وتظهر، وإلا فاستكثوا عما سكت الله عنه.

﴿عفا الله عنها﴾ أي: سكت معافياً لعباده منها، فكل ما سكت الله عنه فهو مما أباحه وعفا عنه. ﴿والله غفور حلیم﴾ أي: لم يزل بالمغفرة موصوفاً، وبالعلم والإحسان معروفاً، فتعرضوا لغفرته وإحسانه، واطلبوه من رحمته ورضوانه.

وهذه المسائل التي نهيتم عنها قد سألتها قوم من قبلكم ﴿أي: جنسها وشبهها، سؤال تعنت لا استرشاد. فلما بينت لهم وجاءتهم ﴿أصبحوا بها كافرين﴾ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم».

﴿١٠٣-١٠٤﴾ ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾ * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يفتنون ﴿هذا ذم للمشركين الذين شرعوا في الدين ما لم يأذن به الله، وحرموا ما أحله الله، فجعلوا بآرائهم الفاسدة شيئاً من مواشيهم محرماً، على حسب اصطلاحاتهم التي عارضت ما أنزل الله، فقال: ﴿ما جعل الله من بحيرة﴾ وهي: ناقة يشقون أذنها، ثم يجرمون ركوبها ويرونها محرمة.

﴿ولا سائبة﴾ وهي: ناقة، أو بقرة، أو شاة، إذا بلغت شيئاً اصطلحوا عليه، سببها فلا تترك ولا يحمل عليها ولا تؤكل، وبعضهم ينذر شيئاً من ماله يجعله سائبة.

﴿ولا حام﴾ أي: جبل يجمى ظهره عن الركوب والحمل، إذا وصل إلى حالة معروفة بينهم.

فكل هذه مما جعلها المشركون محرمة بغير دليل ولا برهان وإنما ذلك افتراء على الله، وصادرة من جهلهم وعدم عقلهم، ولهذا قال: ﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾ فلا نقل فيها ولا عقل، ومع هذا فقد أعجبوا بآرائهم التي بنيت على الجهالة والظلم.

فيأذا دعوا ﴿إلى ما أنزل الله وإلى الرسول﴾ أعرضوا فلم يقبلوا، و ﴿قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾ من الدين، ولو كان غير سديد، ولا ديناً ينجي من عذاب الله.

ولو كان في آباؤهم كفاية ومعرفة ودراية لهان الأمر. ولكن آباءهم لا يعقلون شيئاً، أي: ليس عندهم من المعقول شيء، ولا من العلم والهدى شيء.

فتباً لمن قلّد من لا علم عنده صحيح، ولا عقل رجيح، وترك اتباع ما أنزل الله، واتباع رسله الذي يملأ القلوب علماً وإيماناً وهدى وإيقاناً.

﴿١٠٥﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ أي: اجتهدوا في إصلاحها وكمالها وإلزامها سلوك الصراط المستقيم، فإنكم إذا صلحتم لا يضركم من ضل عن الصراط المستقيم، ولم يهتد إلى الدين القويم، وإنما يضر نفسه.

ولا يدل هذا على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يضر العبد تركهما وإمهالهما، فإنه لا يتم هداة إلا



بالإتيان بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

نعم، إذا كان عاجزاً عن إنكار المنكر بيده ولسانه وأكبره بقلبه، فإنه لا يضره ضلال غيره.

وقوله: ﴿إلى الله مرجعكم جميعاً﴾ أي: ما لكم يوم القيامة، واجتماعكم بين يدي الله تعالى. ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ من خير وشر.

﴿١٠٦-١٠٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا

آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربي ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الأثمين * فإن عثر على أنهما استحقا إثماً فأخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدنا إنا إذا لمن الظالمين * ذلك أدنى أن يأتيوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ يخبر تعالى خيراً متضمناً للأمر بإشهاد اثنين على الوصية، إذا حضر الإنسان مقدمات الموت وعلائمه، فينبغي له أن



خانا ﴿فأخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان﴾. أي: فليقم رجلان من أولياء الميت، وليكونا من أقرب الأولياء إليه. ﴿فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما﴾ أي: أنهما كذبا، وغيرا وخانا. ﴿وما اعتدينا إننا إذا لمن الظالمين﴾ أي: إن ظلمنا واعتدينا، وشهدنا بغير الحق.

قال الله تعالى في بيان حكمة تلك الشهادة وتأكيدها، وردها على أولياء الميت حين تظهر من الشاهدين الحيانة: ﴿ذلك أدنى﴾ أي: أقرب ﴿أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ حين تؤكد عليهما تلك التأكيدات. ﴿أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾ أي: أن لا تقبل أيمانهم، ثم ترد على أولياء الميت.

﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الذين وصفهم الفسق، فلا يريدون الهدى والقصد إلى الصراط المستقيم.

وحاصل هذا، أن الميت - إذا حضره الموت في سفر ونحوه، مما هو مظنة قلة الشهود المعبرين - أنه ينبغي أن يوصي شاهدين مسلمين عدلين. فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين، جاز أن يوصي إليهما، ولكن لأجل كفرهما فإن الأولياء إذا ارتابوا بهما فلأنهم يخلفونهما^(١) بعد الصلاة، أنهما ما خانا، ولا كذبا، ولا غيرا، ولا بدلا، فيبرأ بذلك من حق يتوجه إليهما.

فإن لم يصدقهما ووجدوا قرينة تدل على كذب الشاهدين، فإن شاء أولياء الميت، فليقم منهم اثنان، فيقسمان بالله: لشهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين، وأنهما خانا وكذبا، فيستحقون منهما ما يدعون. وهذه الآيات الكريمة نزلت في قصة «تميم الداري» و«عدي بن بداء» المشهورة حين أوصى لهما العدوي، والله أعلم.

ويستدل بالآيات الكريمت على

يكتب وصيته، ويشهد عليها اثنين ذوي عدل ممن تعتبر شهادتهما. ﴿أو أخران من غيركم﴾ أي: من غير أهل دينكم، من اليهود أو النصراني أو غيرهم، وذلك عند الحاجة والضرورة وعدم غيرهما من المسلمين.

﴿إن أنتم ضربتم في الأرض﴾ أي: سافرتم فيها ﴿فأصابتكم مصيبة الموت﴾ أي: فأشهدوهم، ولم يأمر بشهادتهما إلا لأن قولهما في تلك الحال مقبول، ويؤكد عليهما، بأن يجسبا ﴿من بعد الصلاة﴾ التي يعظونها.

﴿فيقسمان بالله﴾ أنهما صدقا، وما غيرا ولا بدلا، هذا ﴿إن ارتبتم﴾ في شهادتهما، فإن صدقتموهما، فلا حاجة إلى القسم بذلك.

ويقولان: ﴿لا نستري به﴾ أي: بأيماننا ﴿ثمناً﴾ بأن نكذب فيها، لأجل عرض من الدنيا. ﴿ولو كان ذا قربي﴾ فلا تراعيه لأجل قربه منا ﴿ولا تكفم شهادة الله﴾ بل نؤديها على ما سمعناها ﴿إننا إذا﴾ أي: إن كتمناها ﴿لمن الآمين﴾.

﴿فإن عشر على أنهما﴾ أي: الشاهدين ﴿استحقا إثماً﴾ بأن وجد من القرائن ما يدل على كذبهما وأنهما

(١) في السخين: يخلفونهم.

القرينة - مع إيمانها - قائمة مقام البينة .

﴿١٠٩ - ١١٠﴾ «يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجيتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب * إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهدي وكهلاً وإذ علمت الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبريء الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كفت بني إسرائيل عنك إذ جنتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين* يخبر تعالى عن يوم القيامة وما فيه من الأهوال العظام، وأن الله يجمع به جميع الرسل فيسألهم: ﴿ماذا أجيتم﴾ أي: ماذا أجابتمكم به أمكم .

﴿١١٠﴾ «قالوا لا علم لنا» وإنما العلم لك يا ربنا، فأنت أعلم منا. ﴿إنك أنت علام الغيوب﴾ أي: تعلم الأمور الغائبة والحاضرة .

﴿١١١﴾ «إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك﴾ أي: اذكرها بقلبك ولسانك، وقم بواجبها شكراً لربك، حيث أنعم عليك نعماً ما أنعم بها على غيرك .

﴿١١٢﴾ «إذ أيدتك بروح القدس﴾ أي: إذ قويتك بالروح والوحي، الذي طهرك وزكأك، وصار لك قوة على القيام بأمر الله والدعوة إلى سبيله. وقيل: إن المراد «بروح القدس» جبريل عليه السلام، وأن الله أعانه به وبملازمته له، وتثبيتته في المواطن المشقة .

﴿١١٣﴾ «تكلم الناس في المهدي وكهلاً» المراد بالتكليم هنا، غير التكليم المعهود الذي هو مجرد الكلام، وإنما المراد بذلك التكليم الذي ينتفع به المتكلم والمخاطب، وهو الدعوة إلى الله .

ولعيسى عليه السلام من ذلك، ما لإخوانه من أولي العزم من المرسلين، من التكليم في حال الكهولة، بالرسالة والدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر، وامتاز عنهم بأنه كلم الناس في المهدي، فقال: ﴿إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ الآية .

﴿١١٤﴾ «وإذ علمت الكتاب والحكمة» فالكتاب يشمل الكتب السابقة، وخصوصاً التوراة، فإنه من أعلم أنبياء بني إسرائيل - بعد موسى - بها . ويشمل الإنجيل الذي أنزله الله عليه .

والحكمة هي: معرفة أسرار الشرع وفوائده وحكمه، وحسن الدعوة والتعليم، ومراعاة ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي .

﴿١١٥﴾ «وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير» أي: طيراً مصوراً لا روح فيه . فتنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وتبريء الأكمه الذي لا بصر له ولا عين . ﴿والأبرص بإذني، وإذ تخرج الموتى بإذني﴾ فهذه آيات بينات، ومعجزات باهرات، يعجز عنها الأطباء وغيرهم، أيد الله بها عيسى وقوى بها دعوته .

﴿١١٦﴾ «وإذ كفت بني إسرائيل عنك، إذ جنتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم﴾ لما جاءهم الحق مؤيداً بالبينات الموجبة للإيمان به . ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ . وهما بعيسى أن يقتلوه، وسعوا في ذلك، فكف الله أيديهم عنه، وحفظه منهم وعصمه .

فهذه ممن امتن الله بها على عبده ورسوله عيسى ابن مريم، ودعاه إلى شكرها والقيام بها، فقام بها عليه السلام أتم القيام، وصبر كما صبر إخوانه من أولي العزم .

﴿١١٧ - ١٢٠﴾ «وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا

وَمَا كُنَّا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ بِالْحَقِّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١١٧﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنزِلَ إِلَيَّ الْوَحْيُ وَأَنَا نَذِيرٌ لِّلَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١١٨﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدَّبْتُ الْقُرْآنَ بِأُذُنٍ مُّبِينٍ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ لِّلَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدَّبْتُ الْقُرْآنَ بِأُذُنٍ مُّبِينٍ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ لِّلَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٠﴾

أصنافاً إلى آخر الآيات^(١) أي: واذكر نعمتي عليك إذ يسرت لك أتباعاً وأعاوناً . فأوحيت إلى الحواريين أي: ألهمتهم، وأوزعت قلوبهم الإيمان بي وبرسولي، أو أوحيت إليهم على لسانك، أي: أمرتهم بالوحي الذي جاءك من عند الله، فأجابوا لذلك وانقادوا، وقالوا: آمنا بالله، واشهد بأننا مسلمون، فجمعوا بين الإسلام الظاهر، والالتقياد بالأعمال الصالحة، والإيمان الباطن المخرج لصاحبه من النفاق ومن ضعف الإيمان .

والحواريون هم: الأنصار، كما قال تعالى: ﴿كما قال عيسى ابن مريم^(٢) للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون: نحن أنصار الله﴾ .

﴿١٢١﴾ «إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾ أي: مائدة فيها طعام، وهذا ليس منهم عن شك في قدرة الله، واستطاعته على ذلك . وإنما ذلك من باب العرض والأدب منهم .

ولما كان سؤال آيات الاقتراح منافياً للالتقياد للحق، وكان هذا الكلام الصادر من الحواريين ربما أوهم ذلك، وعظهم عيسى عليه السلام فقال:

(١) في ب أكل الآيات إلى قوله: (وهو على كل شيء قدير).

(٢) هكذا في الأصل والمراد بين وهو كما قال الله تعالى حكاية لقول عيسى ابن مريم للحواريين.

فيقول الله هذا الكلام لعيسى . فبتبراً عيسى ويقول: ﴿سبحانك﴾ عن هذا الكلام القبيح، وعمّا لا يليق بك .

﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ أي: ما ينبغي لي، ولا يليق أن أقول شيئاً ليس من أوصافي ولا من حقوقي، فإنه ليس أحد من المخلوقين، لا الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية وإنما الجميع عباد، مدبرون، وخلق مسخرون، وفقراء عاجزون ﴿إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ فأنت أعلم بما صدر مني و﴿أنت علام الغيوب﴾ وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام في خطابه لربه، فلم يقل عليه السلام: ﴿لم أقل شيئاً من ذلك﴾، وإنما أخير بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة، ونزه ربه عن ذلك أنه تنزيهه، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

ثم صرح بذكر ما أمر به بني إسرائيل، فقال: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به﴾ فأنا عبد متبع لأمرك، لا متجربى على عظمتك، ﴿أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ أي: ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمي إلهين من دون الله، وبيان أي عبد مريب، فكما أنه ربكم فهو ربي .

﴿وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم﴾ أشهد على من قام بهذا الأمر، ممن لم يقم به . ﴿فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم﴾ أي: المطلع على سرائرهم وضمائرهم . ﴿وأنت على كل شيء شهيد﴾ علماً وسمعاً وبصراً، فعلمك قد أحاط بالعلوم، وسمعك بالمسموعات، وبصرك بالمبصرات، فأنت الذي تجازي عبادك بما تعلمه فيهم من خير وشر .

﴿اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك﴾ أي: يكون وقت نزولها عيداً وموسماً، يتذكر به هذه الآية العظيمة، فتحفظ ولا تنسى على مرور الأوقات وتكرر السنين .

كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مذكراً لآياته، ومنها على سنن المرسلين وطرقهم القويمه، وفضلته وإحسانه عليهم . ﴿وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾ أي: اجعلها لنا رزقاً، فسأل عيسى عليه السلام نزولها وأن تكون لهاتين المصلحتين، مصلحة الدين بأن تكون آية باقية، ومصلحة الدنيا، وهي أن تكون رزقاً .

﴿قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم، فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾ لأنه شاهد الآية الباهرة وكفر عناداً وظلماً، فاستحق العذاب الأليم والعقاب الشديد . واعلم أن الله تعالى وعد أنه سينزلها، وتوعدهم - إن كفروا - بهذا الوعيد، ولم يذكر أنه أنزلها، فيحتمل أنه لم ينزلها بسبب أنهم لم يختاروا ذلك، ويدل على ذلك، أنه لم يذكر في الإنجيل الذي بأيدي النصارى، ولا له وجود . ويحتمل أنها نزلت كما وعد الله، والله لا يخلف الميعاد، ويكون عدم ذكرها في الأناجيل التي بأيديهم من الحظ الذي ذكروا به فنسوه .

أو أنه لم يذكر في الإنجيل أصلاً، وإنما ذلك كان متوارثاً بينهم، ينقله الخلف عن السلف، فاكتفى الله بذلك عن ذكره في الإنجيل، ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿وتكون عليها من الشاهدين﴾ والله أعلم بحقيقة الحال .

﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أتنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ . وهذا توبيخ للنصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة،



﴿اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ فإن المؤمن يحمله ما معه من الإيمان على ملازمة التقوى، وأن ينقاد لأمر الله، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدري ما يكون بعدها شيئاً .

فأخبر الخواريون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى، وإنما لهم مقاصد صالحة، ولأجل الحاجة إلى ذلك فـ ﴿قالوا نريد أن نأكل منها﴾ وهذا دليل على أنهم محتاجون لها، ﴿وتطمئن قلوبنا﴾ بالإيمان حين نرى الآيات العيانة، فيكون الإيمان عين اليقين، كما كان قبل ذلك علم اليقين . كما سأل الخليل عليه الصلاة والسلام ربه أن يريه كيف يمحي الموتى ﴿قال أولم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ . فالعبد محتاج إلى زيادة العلم واليقين والإيمان كل وقت، ولهذا قال: ﴿ونعلم أن قد صدقتنا﴾ أي: نعلم صدق ما جئت به، أنه حق وصدق، ﴿وتكون مصالحة لمن بعدنا، نشهدا لك، فنقوم الحجة، ويحصل زيادة البرهان بذلك .

فلما سمع عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك، وعلم مقصودهم، أجابهم إلى طلبهم في ذلك، فقال:

ويعلم ما تكسبون ﴿٦﴾ أي: وهو المألوه المعبود في السماوات وفي الأرض، فأهل السماء والأرض، متعبدون لربهم خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته وجلاله، الملائكة القربون، والأنبياء والمرسلون، والصديقون والشهداء والصالحون.

وهو تعالى يعلم سرهم وجهركم ويعلم ما تكسبون، فاحذروا معاصيه وارغبوا في الأعمال التي تقرّبكم منه، وتذنيكم من رحمته، واحذروا من كل عمل يبعدكم منه ومن رحمته.

﴿٤ - ٦﴾ ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾ * فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون * ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لهم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴿٦﴾ هذا إخبار منه تعالى عن إعراض المشركين، وشدة تكذيبهم وعداوتهم، وأنهم لا تنفع فيهم الآيات حتى تحمل بهم المثالات، فقال: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم﴾ الدالة على الحق دلالة قاطعة، الداعية لهم إلى اتباعه وقبوله ﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ لا يلقون لها بالاً، ولا يصغون لها سمعاً، قد انصرفت قلوبهم إلى غيرها، وولوها أديارهم.

﴿فقد كذبوا بالحق لما جاءهم﴾ والحق حقه أن يتبع، ويشكر الله على تيسيره لهم، وإتيانهم به، فقابلوه بضعف ما يجب مقابلته به فاستحقوا العقاب الشديد ﴿فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون﴾ أي: فسوف يرون ما استهزؤوا به، أنه الحق والصدق، ويبين الله للمكذبين كذبهم وافتراءهم، وكانوا يستهزؤون بالبعث والجنة والنار، فإذا كان يوم القيامة قيل للمكذبين: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾.

وقال تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهداً بماأنهم لا يبعث الله من يموت بل

والجلال عموماً، وعلى هذه المذكورات خصوصاً. فحمد نفسه على خلقه السماوات والأرض، الدالة على كمال قدرته، وسعة علمه ورحمته، وعموم حكمته، وانفراجه بالخلق والتدبير، وعلى جعله الظلمات والنور، وذلك شامل للحسي من ذلك كالليل والنهار والشمس والقمر. والمنعوي كظلمات الجهل والشك، والشرك والمعصية، والغفلة، ونور العلم والإيمان واليقين والطاعة، وهذا كله يدل دلالة قاطعة أنه تعالى هو المستحق للعبادة وإخلاص الدين له، ومع هذا الدليل ووضوح البرهان ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ أي يعدلون به سواء، يسوونهم به في العبادة والتعظيم، مع أنهم لم يساواوا الله في شيء من الكمال، وهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه.

﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ وذلك بخلق مادتك وأبيكم آدم عليه السلام. ﴿ثم قضى أجلاً﴾ أي: ضرب لمدة إقامتكم في هذه الدار أجلاً، تمتعون به وتمتحنون، وتبتلون بما يرسل إليهم به رسله.

﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ ويعمركم ما يتذكر فيه من تذكر. ﴿وأجل مسمى عنده﴾ وهي: الدار الآخرة، التي ينتقل العباد إليها من هذه الدار، فيجازيهم بأعمالهم من خير وشر.

﴿ثم﴾ مع هذا البيان التام وقطع الحجة ﴿أنتم تمترون﴾ أي: تشكون في وعد الله ووعيده، ووقوع الجزاء يوم القيامة.

وذكر الله الظلمات بالجمع، لكثرة موادها وتنوع طرقها. ووجد النور لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدة لا تعدد فيها، وهي: الصراط المتضمنة للعلم بالحق والعمل به، كما قال تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾.

﴿٣﴾ ﴿هو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سرهم وجهركم

﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ وأنت أرحم بهم من أنفسهم وأعلم بأحوالهم، فلو لا أنهم عباد متمردون لم تعذبهم. ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي: فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدره، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة.

الحكيم حيث كان من مقتضى حكمتك أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة.

﴿قال الله﴾ مبيناً لحال عباده يوم القيامة، ومن الفائز منهم ومن الهالك، ومن الشقي ومن السعيد، ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم على الصراط المستقيم والهدى القويم، فيوم القيامة يجودون ثمره ذلك الصدق، إذا أحلهم الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ولهذا قال: ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾ والكاذبون بضعهم، سيجدون ضرر كذبهم وافتراءهم، وثمره أعمالهم الفاسدة.

﴿الله ملك السماوات والأرض﴾ لأنه الخالق لهما والمدير لذلك بحكمه القدري، وحكمه الشرعي، وحكمه الجزائي، ولهذا قال: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ فلا يعجزه شيء، بل جميع الأشياء منقادة لمشيئته، ومسخرة بأمره.

تم تفسير سورة المائدة بفضل من الله وإحسان، والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الأنعام وهي مكية

﴿١ - ٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون ﴿١﴾ هذا إخبار عن حمده والشناء عليه بصفات الكمال، ونعوت العظمة

ومتوعداً. ﴿ولقد استهزئ برسول من قبلك﴾ لما جاؤوا أنهم بالبيئات كذبوهم واستهزؤوا بهم وبما جاؤوا به. فأهلكهم الله بذلك الكفر والتكذيب، ووفى لهم من العذاب أكمل نصيب. ﴿فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون﴾ فاحذروا - أيها المكذبون - أن تستمروا على تكذيبكم، فيصيبيكم ما أصابهم.

فإن شككتم في ذلك أو ارتبتم، فسيروا في الأرض ثم انظروا، كيف كان عاقبة المكذبين، فلن تجدوا إلا قوماً مهلكين، وأما في المثلاث تالفين، قد أوحشت منهم المنازل، وعدم من تلك الربوع كل متمتع بالسرور نازل، أبادهم الملك الجبار، وكان بناؤهم عبرة لأولي الأبصار. وهذا السير المأمور به سير القلوب والأبدان، الذي يتولد منه الاعتبار. وأما مجرد النظر من غير اعتبار، فإن ذلك لا يفيد شيئاً.

﴿قل لمن ما في السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين بالله، مقررراً لهم وملزمأ بالتوحيد: ﴿لمن ما في السموات والأرض﴾ أي: من الخالق لذلك، المالك له المتصرف فيه؟

﴿قل﴾ لهم: ﴿الله﴾ وهم مقرون بذلك لا ينكروه، أفلا حين اعترفوا بانفراد الله بالملك والتدبير، أن يعترفوا له بالإخلاص والتوحيد!!

وقوله: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ أي: العالم العلوي والسفلي تحت ملكه وتدبيره، وهو تعالى قد بسط عليهم رحمته وإحسانه، وتغمدهم برحمته وامتنانه، وكتب على نفسه كتاباً أن رحمته تغلب غضبه، وأن العطاء أحب إليه من المنع، وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة، إن لم يخلقوا عليهم أبواباً بذنوبهم، ودعاهم إليها إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم وعبوبهم، وقوله: ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ وهذا قسم منه،

أنزل عليه ملك﴾ أي: هلا أنزل مع محمد ملك، يعاونه ويساعده على ما هو عليه بزعمهم أنه بشر، وأن رسالة الله، لا تكون إلا على أيدي الملائكة.

قال الله في بيان رحمته ولطفه بعباده، حيث أرسل إليهم بشراً منهم يكون الإيمان بما جاء به عن علم وبصيرة وغيب. ﴿ولو أنزلنا ملكاً﴾ برسالتنا، لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق، وكان إيماناً بالشهادة الذي لا ينفع شيئاً وحده، هذا إن آمنوا، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة، فإذا لم يؤمنوا قضي الأمر بتعجيل الهلاك عليهم وعدم إنظارهم، لأن هذه سنة الله فيمن طلب الآيات المقترحة فلم يؤمن بها، فيارسال الرسول البشري إليهم بالآيات البيئات، التي يعلم الله أنها أصلح للعباد وأرفق بهم، مع إمهال الله للكافرين والمكذبين، خير لهم وأنفع، فظلمهم لإنزال الملك شر لهم لو كانوا يعلمون، ومع ذلك فالملك لو أنزل عليهم، وأرسل، لم يطبقوا التلقي عنه، ولا احتملوا ذلك، ولا أطاقتهم قواهم القانية.

﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ لأن الحكمة لا تقتضي سوى ذلك. ﴿وللبينا عليهم ما يليسون﴾ أي: ولكن الأمر مختلطاً عليهم وملبوساً وذلك بسبب ما لبسوه على أنفسهم، فإنهم بنوا أمرهم على هذه القاعدة التي فيها اللبس، وبها عدم بيان الحق.

فلما جاءهم الحق بطرقه الصحيحة، وقواعده التي هي قواعده، لم يكن ذلك هداية لهم، إذا اهتدى بذلك غيرهم، والذنب ذنبهم، حيث أغلقوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا أبواب الضلال.

﴿١٠ - ١١﴾ ﴿ولقد استهزئ برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون﴾ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ يقول تعالى - مسلماً لرسوله، ومصبراً ومتهدداً أعداءه

وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ليبن لهم الذي يتلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾ ثم أمرهم أن يعتبروا بالأمم السالفة فقال:

﴿ألم يروا كم أهلكتنا من قبلهم من قرن﴾ أي: كم تتابع إهلاكنا للأمم المكذبين، وأمهلناهم قبل ذلك الإهلاك، بأن مكناهم في الأرض ما لم تمكن لهؤلاء من الأموال والبنين والرفاهية.

﴿وأرسلنا السماء عليهم مدراراً، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم﴾ فيبت لهم بذلك ما شاء الله من زروع وثمار، يتمتعون بها، ويتناولون منها ما يشتهون، فلم يشكروا الله على نعمه، بل أقبلوا على الشهوات، وألهتهم أنواع اللذات، فجاءتهم رسلمهم بالبيئات فلم يصدقوها، بل ردوها وكذبوها فأهلكهم الله بذنوبهم وأنشأ من بعدهم قرناً آخرين.

فهذه سنة الله ودأبه في الأمم السابقين واللاحقين، فاعتبروا بمن قص الله عليكم نأهم.

﴿٧ - ٩﴾ ﴿ولو أنزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون﴾ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبينا عليهم ما يليسون﴾ هذا إخبار من الله لرسوله عن شدة عناد الكافرين، وأنه ليس تكذيبهم لقصور فيما جئتهم به، ولا لجهل منهم بذلك، وإنما ذلك ظلم وبغي، لا حيلة لكم فيه، فقال: ﴿ولو أنزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم﴾ وتيقنوه ﴿لقال الذين كفروا﴾ ظلماً وعلواً ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾.

فأي: بيعة أعظم من هذه البيعة، وهذا قولهم الشيع فيهما، حيث كابروا المحسوس الذي لا يمكن من له أدنى مسكة من عقله دفعه!!

﴿وقالوا﴾ أيضاً تعنتاً مبنيّاً على الجهل، وعدم العلم بالمعقول. ﴿لولا



والإلهية .

﴿وهو القاهر فوق عباده﴾
فلا يتصرف منهم متصرف،
ولا يتحرك متحرك، ولا يسكن
ساكن إلا بمشيئته، وليس للملوك
وغيرهم الخروج عن ملكه وسلطانه،
بل هم مدبرون مقهورون، فإذا كان هو
القاهر وغيره مقهوراً، كان هو المستحق
للعبادة .

﴿وهو الحكيم﴾ فيما أمر به ونهى،
وأثاب وعاقب، وفيما خلق وقدر .
﴿الخبير﴾ المطلع على السرائر والضمائر
وخطايا الأمور، وهذا كله من أدلة
التوحيد .

﴿قل﴾ لهم - لما بينا لهم الهدى،
وأوضحنا لهم المسالك - : ﴿أي :
شيء أكبر شهادة﴾ على هذا الأصل
العظيم ﴿قل الله﴾ أكبر شهادة، فهو
﴿شاهد بيني وبينكم﴾ فلا أعظم منه
شهادة ولا أكبر، وهو يشهد لي بإقراره
وفعله، فيقرني على ما قلت لكم، كما
قال تعالى : ﴿ولو تقول علينا بعض
الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا
منه الوتين﴾ فإله حكيم قدير،
فلا يليق بحكمته وقدرته أن يقر كاذباً
عليه، زاعماً أن الله أرسله ولم يرسله،
وأن الله أمره بدعوة الخلق ولم يأمره،
وأن الله أباح له دماء من خالفه
وأموالهم ونساءهم، وهو مع ذلك
يصدق بإقراره ويفعله، فيؤيده على ما

إلى إخلاص العبادة، والحب والخوف،
والرجاء لله رب العالمين؟!!

﴿السميع﴾ لجميع الأصوات على
اختلاف اللغات بتفتن الحاجات .
﴿العليم﴾ بما كان، وما يكون، وما لم
يكن، لو كان كيف كان يكون، المطلع
على الظواهر والبواطن؟!!

﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين بالله :
﴿أغير الله اتخذ ولياً﴾ من هؤلاء
المخلوقات العاجزة بتولاني وينصرون؟!
فلا اتخذ من دونه تعالى ولياً لأنه
فاطر السماوات والأرض، أي :
خالقهما ومدبرهما . ﴿وهو يطعم﴾
ولا يطعم﴾ أي : وهو الرزاق لجميع
الخلق، من غير حاجة منه تعالى إليهم،
فكيف يليق أن اتخذ ولياً غير الخالق
الرزاق، الغني الحميد؟! ﴿قل إنني
أمرت أن أكون أول من أسلم﴾ لله
بالتوحيد، وانقاد له بالطاعة، لأنني أولى
من غيري بامثال أوامر ربي .

﴿ولا تكونن من المشركين﴾ أي :
ونهيتم أيضاً عن أن أكون من
المشركين، لا في اعتقادهم ولا في
مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم،
فهذا أفرض الفروض علي، وأوجب
الواجبات .

﴿قل إنني أخاف إن عصيت ربي
عذاب يوم عظيم﴾ فإن العصية في
الشرك توجب الخلود في النار،
وسخط الجبار، وذلك اليوم هو اليوم
الذي يخاف عذابه، ويحذر عقابه؛ لأنه
من صُرف عنه العذاب يومئذ فهو
المرحوم، ومن نجا فيه فهو الفائز حقاً،
كما أن من لم ينج منه فهو الهالك
الشقي .

ومن أدلة توحيده، أنه تعالى المنفرد
بكشف الضراء، وجلب الخير
والسراء، ولهذا قال : ﴿وإن
يمسسك الله بضر﴾ من فقر، أو
مرض، أو عسر، أو غم، أو هم أو
نحوه . ﴿فلا كاشف له إلا هو، وإن
يمسسك بخير فهو على كل شيء
قدير﴾ . فإذا كان وحده النافع الضار،
فهو الذي يستحق أن يفرد بالعبودية

وهو أصدق المخبرين، وقد أقام على
ذلك من الحجج البينة والبراهين، ما
يجعله حق اليقين، ولكن أبي الظالمون
إلا جحوداً، وأنكروا قدرة الله على
بعث الخلائق، فأوضعوا في معاصيه،
وتجرؤوا على الكفر به، فحسروا ديناهم
وأخرامهم، ولهذا قال : ﴿الذين خسروا
أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾

﴿١٣ - ٢٠﴾ ﴿وله ما سكن في
الليل والنهار وهو السميع العليم﴾ قل
أغير الله اتخذ ولياً فاطر السماوات
والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إنني
أمرت أن أكون أول من أسلم ولا
تكونن من المشركين * قل إنني أخاف
إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم * من
يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز
المبين * وإن يمسسك الله بضر فلا
كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير
فهو على كل شيء قدير * وهو القاهر
فوق عباده وهو الحكيم الخبير * قل أي
شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني
وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لأُنذركم
به ومن بلغ أنتم لتشهدون أن مع الله
ألهاً أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله
واحد وإنني بريء مما تشركون * الذين
آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون
أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم
لا يؤمنون * اعلم أن هذه السورة
الكريمة قد اشتملت على تقرير التوحيد
بكل دليل عقلي ونقلي، بل كادت أن
تكون كلها في شأن التوحيد ومجادة
المشركين بالله المكذبين لرسوله .

فهذه الآيات ذكر الله فيها ما يتبين
به الهدى، وينقم به الشرك . فذكر أن
﴿له﴾ تعالى ﴿ما سكن في الليل
والنهار﴾ وذلك هو المخلوقات كلها،
من آدميها وجنّها، وملائكتها،
وحيواناتها وجماداتها، فالكل خلق
مدبرون، وعبيد مسخرون لربهم
العظيم القاهر المالك، فهل يصح في
عقل ونقل أن يعبد من هؤلاء
الممالك، الذي لا نفع عنده
ولا ضرر؟ ويترك الإخلاص للمخلوق
المدبر المالك، الضار النافع؟! أم
العقول السليمة والفطر المستقيمة تدعو

ظلماً وعناداً عن كان فيه أحد
الوصفين، فكيف لو اجتماعاً افتراء
الكذب على الله، أو التكذيب بآياته،
التي جاءت بها المرسلون، فإن هذا
أظلم الناس، والظالم لا يفلح أبداً.

ويدخل في هذا كل من كذب
على الله، بادعاء^(٢) الشريك له
والعوين، أو [زعم] أنه ينبغي أن يعبد
غيره أو اتخذ له صاحبة أو ولداً، وكل
من رد الحق الذي جاءت به الرسل أو
من قام مقامهم.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٤﴾ ﴿٢٥﴾ ويوم نحشهم
جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين
شركاؤكم الذين كنتم تزعمون * ثم لم
تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا
مشركين * انظر كيف كذبوا على
أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴿٢٤﴾
يخبر تعالى عن مآل أهل الشرك يوم
القيامة، وأنهم يسألون ويوبخون فيقال
لهم: ﴿أين شركاؤكم الذين كنتم
تزرعون﴾ أي: إن الله ليس له
شريك، وإنما ذلك على وجه الزعم
منهم والافتراء ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾
أي: لم يكن جوابهم حين يفتنون
ويختبرون بذلك السؤال، إلا إنكارهم
لشركهم وحلفهم أنهم ما كانوا مشركين
﴿انظر﴾ متعجباً منهم ومن أحوالهم
﴿كيف كذبوا على أنفسهم﴾ أي:
كذبوا كذباً عاد بالخسار على أنفسهم
وضرهم - والله - غاية الضر ﴿وضل
عنهم ما كانوا يفترون﴾ من الشركاء
الذين زعموهم مع الله، تعالى الله عن
ذلك علواً كبيراً.

﴿٢٥﴾ ﴿ومنهم من يستمع إليك
وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي
آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا
بها حتى إذا جاؤوك بمجادلونك يقول
الذين كفروا إن هذا إلا أساطير
الأولين﴾ أي: ومن هؤلاء المشركين
قوم يحملهم بعض الأوقات، بعض
الدواعي إلى الاستماع لما تقول، ولكنه
استماع حال من قصد الحق واتباعه،
ولهذا لا ينتفعون بذلك الاستماع لعدم

الذين مرجت عقولهم وأديانهم،
وفسدت آراؤهم وأخلاقهم،
وأضحكوا على أنفسهم العقلاء.

بل خالفوا بشهادة فطريهم،
وتناقضت أقوالهم على إثبات أن
مع الله آلهة أخرى، مع أنه لا يقوم
على ما قالوه^(١) أدنى شبهة فضلاً عن
الحجج، واختر لنفسك أي: الشهادتين
إن كنت تعقل، ونحن نختار لأنفسنا ما
اختاره الله لنبيه، الذي أمرنا الله
بالاقتداء به، فقال: ﴿قل إنما هو إله
واحد﴾ أي: منفرد لا يستحق العبودية
والإلهية سواه، كما أنه المنفرد بالخلق
والتدبير.

﴿وإني بريء مما تشركون﴾ به من
الأوثان والأنداد، وكل ما أشرك به
مع الله. فهذا حقيقة التوحيد، إثبات
الإلهية لله ونفيها عما عداه.

لما بين شهادته وشهادة رسوله على
التوحيد، وشهادة المشركين الذين
لا علم لديهم على ضده، ذكر أن أهل
الكتاب من اليهود والنصارى -
﴿يعرفونه﴾ أي: يعرفون صحة
التوحيد ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ أي:
لا شك عندهم فيه بوجه، كما أنهم
لا يشتبهون بأولادهم، خصوصاً
البنين الملازمين في الغالب لآبائهم -
ويحتمل أن الضمير عائد إلى الرسول
محمد ﷺ، وأن أهل الكتاب
لا يشتبهون بصحة رسالته ولا يمترون
بها، لما عندهم من البشارات به،
ونعوته التي تنطبق عليه ولا تصلح
لغيره، والمعنيان متلازمان.

قوله: ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾
أي: فوتوا ما خلقت له من الإيمان
والتوحيد، وحرموها الفضل من الملك
المجيد ﴿فهم لا يؤمنون﴾ فإذا لم يوجد
الإيمان منهم، فلا تسأل عن الخسار
والشر، الذي يحصل لهم.

﴿٢١﴾ ﴿ومن أظلم ممن افتري
على الله كذباً أو كذب بآياته إنه
لا يفلح الظالمون﴾ أي: لا أعظم



قال بالمعجزات الباهرة والآيات
الظاهرة، وينصره ويخذل من خالفه
وعاداه، فأى: شهادة أكبر من هذه
الشهادة!!

وقوله: ﴿وأوحى إلي هذا القرآن
لأنذركم به ومن بلغ﴾ أي:
وأوحى الله إلي هذا القرآن الكريم
لمنفعتكم ومصلحتكم، لأنذركم به من
العقاب الأليم. والندارة إنما تكون
بذكر ما ينذرهم به من الترغيب،
والترهيب، وبيان الأعمال والأقوال،
الظاهرة والباطنة، التي من قام بها فقد
قبل الندارة، فهذا القرآن فيه الندارة
لكم أيها المخاطبون، وكل من بلغه
القرآن إلى يوم القيامة، فإن فيه بيان كل
ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية.

لما بين تعالى شهادته التي هي أكبر
الشهادات على توحيد، قال: قل
لهؤلاء المعارضين خبر الله، والمكذابين
لرسوله: ﴿أننكم لتشهدون أن مع الله
آلهة أخرى، قل لا أشهد﴾ أي: إن
شهدوا، فلا تشهد معهم.

فوازن بين شهادة أصدق القائلين
ورب العالمين، وشهادة أذكى الخلق
المؤيدة بالبراهين القاطعة والحجج
الساطعة على توحيد الله وحده
لا شريك له، وشهادة أهل الشرك

(٢) كذا في ب، وفي أ: الدعاء.

(١) في ب على ما خالفوه.

إرادتهم للخير ﴿وجعلنا على قلوبهم أكمة﴾ أي: أغطية وأغشية، لئلا يفقهوا كلام الله، فصان كلامه عن أمثال هؤلاء. ﴿وفي آذانهم جعلنا﴾ وقرأ ﴿أي: صمماً، فلا يستمعون ما يفهمهم.

﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ وهذا غاية الظلم والعناد، أن الآيات البينات الدالة على الحق، لا يتقادرون لها، ولا يصدقون بها، بل يجادلون بالباطل الحق ليدحضوه.

ولهذا قال: ﴿حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي: مأخوذ من صحف الأولين المسطورة، التي ليست عن الله ولا عن رسله. وهذا من كفرهم، وإلا فكيف يكون هذا الكتاب الخاوي لأبناء السابقين واللاحقين، والحقائق التي جاءت بها الأنبياء والمرسلون، والحق، والقسط، والعدل التام من كل وجه، أساطير الأولين؟

﴿٢٦﴾ ﴿وهم ينهون عنه ويتأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ وهم: أي: المشركون بالله، المكذبون لرسوله، يجمعون بين الضلال والإضلال، ينهون الناس عن اتباع الحق، ويحذرونهم منه، ويبعدون بأنفسهم عنه، ولن يضرروا الله ولا عباده المؤمنين بفعلهم هذا شيئاً. ﴿إن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ بذلك.

﴿٢٧ - ٢٩﴾ ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ بل بدأ لهم ما كانوا يخفون من قبل ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴿وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ يقول تعالى - مخبراً عن حال المشركين يوم القيامة، وإحضارهم النار: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ ليوبخوا ويقرعوها، لرأيت أمراً هائلاً وحالاً مفضعة. ولرأيتهم كيف أقروا على أنفسهم بالكفر والفسوق، وتمنوا أن لو يردوا إلى الدنيا. ﴿فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من

المؤمنين﴾ بل بدأ لهم ما كانوا يخفون من قبل. فإنهم كانوا يخفون في أنفسهم أنهم كانوا كاذبين، ويبدو في قلوبهم في كثير من الأوقات. ولكن الأغراض الفاسدة صدتهم عن ذلك، وصرفت قلوبهم عن الخير، وهم كذبة في هذه الأمنية، وإنما قصدهم أن يدفعوا بها عن أنفسهم العذاب.

﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾

﴿وقالوا﴾ منكرين للبعث ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ أي: ما حقيقة الحال والأمر وما المقصود من إيجادنا، إلا الحياة الدنيا وحدها. ﴿وما نحن بمبعوثين﴾

﴿٣٠﴾ ﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بل وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي: ﴿ولو ترى﴾ الكافرين ﴿إذ وقفوا على ربهم﴾ لرأيت أمراً عظيماً، وهولاً جسيماً، ﴿قال﴾ لهم موبخاً ومقرعاً: ﴿أليس هذا﴾ الذي ترون من العذاب ﴿بالحق؟﴾ قالوا: بل وربنا فأقروا واعترفوا حيث لا يتفهم ذلك، ﴿قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾

﴿٣١﴾ ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزررون﴾ أي: قد خاب وخسر وجرم الخير كله، من كذب بلقاء الله، فأوجب له هذا التكذيب، الاجترار على المحرمات، واقتراف الموبقات حتى إذا جاءتهم الساعة وهم على أقبح حال وأسوته، فأظهروا غاية الندم. و ﴿قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها﴾ ولكن هذا تحسر ذهب وقته، ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزررون﴾. فإن وزرهم وزر يثقلهم ولا يقدر على التخلص منه، ولهذا خلدوا في النار، واستحقوا التأييد في غضب الجبار.

﴿٣٢﴾ ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للمؤمنين يتقون

﴿٣٣﴾ ﴿وما لكم ألا تأتوا الله ما وعدكم الله عهدهم من قبل﴾ بل بدأ لهم ما كانوا يخفون من قبل. فإنهم كانوا يخفون في أنفسهم أنهم كانوا كاذبين، ويبدو في قلوبهم في كثير من الأوقات. ولكن الأغراض الفاسدة صدتهم عن ذلك، وصرفت قلوبهم عن الخير، وهم كذبة في هذه الأمنية، وإنما قصدهم أن يدفعوا بها عن أنفسهم العذاب. ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ ﴿وقالوا﴾ منكرين للبعث ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ أي: ما حقيقة الحال والأمر وما المقصود من إيجادنا، إلا الحياة الدنيا وحدها. ﴿وما نحن بمبعوثين﴾ أفلا تعقلون ﴿هذه حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، أما حقيقة الدنيا فإنها لعب ولهو، لعب في الأبدان، ولهو في القلوب، فالقلوب لها والهة، والنفوس لها عاشقة، والهوسم فيها متعلقة، والاشتغال بها كلعب الصبيان. وأما الآخرة فإنها ﴿خير للمؤمنين يتقون﴾ في ذاتها وصفاتها، وبقائتها ودوامها، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذذ الأعين، من نعيم القلوب والأرواح، وكثرة السرور والأفراح، ولكنها ليست لكل أحد، وإنما هي للمؤمنين الذين يفعلون أوامر الله، ويتركون نواهيه وزواجره ﴿أفلا تعقلون﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول، بها تدركون، أي: الدارين أحق بالإيثار. ﴿٣٥ - ٣٣﴾ ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين ﴿وإن كان كبر عليك إعراسهم فإن استطعت أن تبغني نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾ أي: قد نعلم أن الذي يقول المكذبون فيك يحزنك ويسؤك، ولم

﴿٣٤﴾ ﴿ولم يردوا إلى الدنيا ليجادلوا المشركين بل صدقت على أنفسهم الباطل الذي كانوا يكذبون﴾

﴿٣٥﴾ ﴿ولم يردوا إلى الدنيا ليجادلوا المشركين بل صدقت على أنفسهم الباطل الذي كانوا يكذبون﴾

﴿٣٦﴾ ﴿ولم يردوا إلى الدنيا ليجادلوا المشركين بل صدقت على أنفسهم الباطل الذي كانوا يكذبون﴾

فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً الآيات.

﴿قل﴾ جيباً لقولهم: ﴿إن الله قادر على أن ينزل آية﴾ فليس في قدرته قصور عن ذلك، كيف وجميع الأشياء منقادة لعزته، مذعة لسلطانه؟!

ولكن أكثر الناس لا يعلمون فهم لجهلهم وعدم علمهم يطلبون ما هو شر لهم من الآيات، التي لو جاءتهم فلم يؤمنوا بها، لوعجولوا بالعقاب، كما هي سنة الله التي لا تبدل لها، ومع هذا فإن كان قصدهم الآيات التي تبين لهم الحق، وتوضح السبيل، فقد أتى محمد ﷺ بكل آية قاطعة، وحجة ساطعة، دالة على ما جاء به من الحق، بحيث يتمكن العبد في كل مسألة من مسائل الدين، أن يجد فيما جاء به عدة أدلة عقلية ونقلية، بحيث لا تبقى في القلوب أدنى شك وارتباب، فتبارك الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وأيده بالآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم.

﴿٣٨﴾ ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾ أي: جميع الحيوانات الأرضية والهوائية، من البهائم والوحوش والطيور، كلها أمم أمثالكم خلقناها كما خلقناكم، ورزقناها كما رزقناكم، ونفذت فيها مشيئتنا وقدرتنا كما كانت نافذة فيكم.

﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ أي: ما أهملنا ولا أغفلنا في اللوح المحفوظ شيئاً من الأشياء، بل جميع الأشياء، صغيرها وكبيرها، مثبتة في اللوح المحفوظ على ما هي عليه، فتقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم.

وفي هذه الآية دليل على أن الكتاب الأول قد حوى جميع الكائنات، وهذا أحد مراتب القضاء والقدر، فإنها أربع مراتب:

الهدى ﴿ ولكن حكمته تعالی اقتضت أنهم يقون على الضلال. ﴿فلا تكونون من الجاهلين﴾ الذين لا يعرفون حقائق الأمور، ولا ينزلونها على منازلها.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى بيعتهم الله ثم إليه يرجعون﴾ وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿يقول تعالی لنبيه ﷺ: ﴿إنما يستجيب لدعوتك ويلبي رسالتك وينقاد لأمرك ونهيك﴾ الذين يسمعون ﴿بقلوبهم ما ينفعهم، وهم أولو الأسباب والاسماع.

والمراد بالسمع هنا: سماع القلب والاستجابة، وإلا فمجرد سماع الأذن، يشترك فيه البر والفاجر. فكل المكلفين قد قامت عليهم حجة الله تعالی باستماع آياته، فلم يبق لهم عذر في عدم القبول.

﴿والموتى بيعتهم الله ثم إليه يرجعون﴾ يحتمل أن المعنى مقابل للمعنى المذكور. أي: إنما يستجيب لك أحياء القلوب، وأما أموات القلوب الذين لا يشعرون بسعادتهم، ولا يحسون بما ينجيهم، فإنهم لا يستجيبون لك ولا ينقادون، وموعدهم القيامة، بيعتهم الله ثم إليه يرجعون، ويحتمل أن المراد بالآية على ظاهرها، وأن الله تعالی يقرر المعاد، وأنه سيبعث الأموات يوم القيامة ثم ينهتهم بما كانوا يعملون.

ويكون هذا متضمناً للترغيب في الاستجابة لله ورسوله، والترهيب من عدم ذلك.

﴿وقالوا﴾ أي: المكذبون بالرسول تعنتاً وعناداً: ﴿لولا نزل عليه آية من ربه﴾ يعنون بذلك آيات الاقتراح، التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة.

كقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب،



نأمرك بما أمرناك به من الصبر إلا لتحصل لك المنازل العالية والأحوال الغالية. فلا تظن أن قولهم صادر عن اشتباه في أمرك وشك فيك ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾ لأنهم يعرفون صدقك ومدخلك ومخرجك، وجميع أحوالك، حتى إنهم كانوا يسمونه قبل البعثة الأمين. ﴿ولكن الظالمين بآيات الله يحدون﴾ أي: فإن تكذيبهم لآيات الله التي جعلها الله على يدك^(١).

﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾ فاصبر كما صبروا، تقظر كما ظفروا، ﴿ولقد جاءك من نبي المرسلين﴾ ما به يثبت فؤادك، ويطمئن به قلبك.

﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم﴾ أي: شق عليك من حرصك عليهم ومحبتك لإيمانهم، فابذل وسعك في ذلك، فليس في مقدورك أن تهدي من لم يرد الله هدايته.

﴿فإن استطعت أن تبغني نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بساتية﴾ أي: فافعل ذلك، فإنه لا يفيدهم شيئاً، وهذا قطع لطمعه في هدايته أشباه هؤلاء المعاندين.

﴿ولو شاء الله لجمعهم على

(١) السياق يقتضي أن يأتي بخبر إن ومقصود الشيخ - رحمه الله - فإن تكذيبهم... جحود منهم لما علموه حقاً.

﴿٥١ - ٥٥﴾ ﴿وأنذره الذين

الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون * ولا تطرد الذين يدعون ربهم

بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين * وكذلك فتنا

بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين * وإذا جاءك الذين يؤمنون

بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه

غفورٌ رحيم * وكذلك نفضل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين ﴿ هذا القرآن

نذارة للخلق كلهم، ولكن إنما ينفع به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ﴿ فهم متيقنون للانتقال من هذه الدار إلى

دار القرار، فلذلك يستصحبون ما ينفعهم ويدعون ما يضرهم. ﴿ ليس لهم من دونه ﴿ أي: من دون الله ﴿ ولي ولا شفيع ﴿ أي: لا من يتولى أمرهم

فيحصل لهم المطلوب ويدفع عنهم المحذور، ولا من يشفع لهم، لأن الخلق كلهم ليس لهم من الأمر شيء. ﴿ لعلهم يتقون ﴿ الله بامتثال أوامره، واجتتاب نواهيه، فإن الإنذار موجب

لذلك، وسبب من أسبابه. ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴿ أي: لا تطرد عنك وعن مجالستك أهل العبادة والإخلاص، رغبة في مجالسة

غيرهم، من الملازمين لدعاء ربهم، دعاء العبادة بالذكر والصلاة ونحوها، ودعاء المسألة في أول النهار وآخره، وهم قاصدون بذلك وجه الله، ليس لهم من الأغراض سوى ذلك الغرض

الجليل، فهؤلاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض عنهم، بل هم مستحقون لمواظبتهم ومحبتهم، وإدانتهم وتقريبهم، لأنهم الصفوة من الخلق وإن كانوا

فقراء، الأغراء في الحقيقة وإن كانوا

بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وأصلح إيمانه وأعماله ونيته ﴿ فلا خوف عليهم ﴿ فيما يستقبل ﴿ ولا هم يحزنون ﴿ على ما مضى. ﴿ والذين كذبوا بآياتنا بمسهم

العذاب ﴿ أي: ينالهم ويذوقونه ﴿ بما كانوا يفسقون ﴿ ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير

أفلا تتفكرون ﴿ يقول تعالى لنبيه ﷺ؛ المقترحين^(١) عليه الآيات، أو القائلين له: إنما تدعوننا لنتحذك إليها مع الله: ﴿ لا أقول لكم عندي خزائن الله ﴿ أي: مفاتيح رزقه ورحمته. ﴿ ولا أعلم الغيب ﴿ وإنما ذلك كله عند الله فهو الذي ما يفتح للناس من رحمة فلا

مسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده، وهو وحده عالم الغيب والشهادة. فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول. ﴿ ولا أقول لكم إنى ملك ﴿ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلي التي أنزلني الله بها. ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴿ أي: هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك.

﴿ قل لا أقول لكم إنى ملك ﴿ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلي التي أنزلني الله بها. ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴿ أي: هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك.

﴿ قل لا أقول لكم إنى ملك ﴿ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلي التي أنزلني الله بها. ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴿ أي: هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك.

﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير

أفلا تتفكرون ﴿ يقول تعالى لنبيه ﷺ؛ المقترحين^(١) عليه الآيات، أو القائلين له: إنما تدعوننا لنتحذك إليها مع الله: ﴿ لا أقول لكم عندي خزائن الله ﴿ أي: مفاتيح رزقه ورحمته. ﴿ ولا أعلم الغيب ﴿ وإنما ذلك كله عند الله فهو الذي ما يفتح للناس من رحمة فلا

مسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده، وهو وحده عالم الغيب والشهادة. فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول. ﴿ ولا أقول لكم إنى ملك ﴿ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلي التي أنزلني الله بها. ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴿ أي: هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك.

﴿ قل لا أقول لكم إنى ملك ﴿ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلي التي أنزلني الله بها. ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴿ أي: هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك.

﴿ قل لا أقول لكم إنى ملك ﴿ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلي التي أنزلني الله بها. ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴿ أي: هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك.

﴿ قل لا أقول لكم إنى ملك ﴿ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلي التي أنزلني الله بها. ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴿ أي: هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك.

﴿ قل لا أقول لكم إنى ملك ﴿ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلي التي أنزلني الله بها. ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴿ أي: هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك.

﴿ قل لا أقول لكم إنى ملك ﴿ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلي التي أنزلني الله بها. ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴿ أي: هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك.

﴿ قل لا أقول لكم إنى ملك ﴿ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلي التي أنزلني الله بها. ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴿ أي: هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك.

﴿ قل لا أقول لكم إنى ملك ﴿ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلي التي أنزلني الله بها. ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴿ أي: هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك.

﴿ قل لا أقول لكم إنى ملك ﴿ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلي التي أنزلني الله بها. ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴿ أي: هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك.

﴿ قل لا أقول لكم إنى ملك ﴿ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلي التي أنزلني الله بها. ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴿ أي: هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك.

﴿ قل لا أقول لكم إنى ملك ﴿ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلي التي أنزلني الله بها. ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴿ أي: هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك.

﴿ قل لا أقول لكم إنى ملك ﴿ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلي التي أنزلني الله بها. ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴿ أي: هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك.

﴿ قل لا أقول لكم إنى ملك ﴿ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلي التي أنزلني الله بها. ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴿ أي: هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك.

﴿ قل لا أقول لكم إنى ملك ﴿ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلي التي أنزلني الله بها. ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴿ أي: هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك.

﴿ قل لا أقول لكم إنى ملك ﴿ فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلي التي أنزلني الله بها. ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴿ أي: هذا غايتي ومنتهى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك.



نصرف الآيات ﴿ أي: ننوعها، ونأتي بها من كل فن، ولتنوير الحق، وتبين سبيل المجرمين. ﴿ ثم هم ﴿ مع هذا البيان التام ﴿ يصدفون ﴿ عن آيات الله ويعرضون عنها.

﴿ قل أرأيتم ﴿ أي: أخبروني ﴿ إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ﴿ أي: مفاجأة أو قد تقدم أمامه مقدمات، تعلمون بها وقوعه ﴿ هل يهلك إلا القوم

الظالمون ﴿ الذين صاروا سبباً لوقوع العذاب بهم، بظلمهم وعنادهم. فاحذروا أن تقيموا على الظلم، فإنه

الهلاك الأبدى، والشقاء السرمدي. ﴿ ٤٨ - ٤٩ ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح

فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كذبوا بآياتنا بمسهم العذاب بما كانوا يفسقون ﴿ يذكر تعالى زيادة ما

أرسل به المرسلين، أنه البشارة والنذارة، وذلك مستلزم لبيان المبشر والمبشر به، والأعمال التي إذا عملها العبد حصلت له البشارة. والمُنذِرُ

والمُنذِرُ به، والأعمال التي من عملها حقت عليه النذارة.

ولكن الناس انقسموا - بحسب إجابتهم لدعوتهم وعدمها - إلى قسمين:

﴿ فمن آمن وأصلح ﴿ أي: آمن

(١) زاد هنا في طبعة السلفية قبل كلمة المقترحين: (أن يخاطب) المقترحين.

عند الناس أذلاء .

﴿ ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء ﴾
أي: كل له حساب، وله عمله الحسن وعمله السيئ. ﴿ فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ وقد امتثل ﷺ هذا الأمر أشد امتثال، فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين صبر نفسه معهم، وأحسن معاملتهم، وألأن لهم جانبه، وحسن خلقه، وقربهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه رضي الله عنهم.

وكان سبب نزول هذه الآيات، أن أناساً [من قريش، أو] من أجلاف العرب قالوا للنبي ﷺ: إن أردت أن تؤمن لك وتنبعك، فاطرد فلاناً وفلاناً، أناساً من فقراء الصحابة، فإننا نستحيي أن ترانا العرب جالسين مع هؤلاء الفقراء، فحمله حبه لإسلامهم واتباعهم له، فحدثته نفسه بذلك . فعاتبه الله بهذه الآيات ونحوها.

﴿ وكذلك فتننا بعضهم ببعض، ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ﴾ أي: هذا من ابتلاء الله لعباده، حيث جعل بعضهم غنياً، وبعضهم فقيراً، وبعضهم شريفاً، وبعضهم وضيعاً، فإذا من الله بالإيمان على الفقير أو الوضيع؛ كان ذلك محل عنة للغني والشريف فإن كان قصده الحق واتباعه آمن وأسلم، ولم يمتعه من ذلك مشاركة الذي يراه دونه بالغمى أو الشرف، وإن لم يكن صادقاً في طلب الحق، كانت هذه عقبة ترده عن اتباع الحق.

وقالوا محترقون لمن يرونهم دونهم: ﴿ أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ﴾ . فمنعهم هذا من اتباع الحق، لعدم زكائهم، قال الله مجيباً لكلامهم المتضمن الاعتراض على الله في هداية هؤلاء، وعدم هدايتهم هم . ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ الذين يعرفون النعمة، ويقرون بها، ويقومون بما تقتضيه من العمل الصالح، فيضع فضله ومنته عليهم، دون من ليس

بشاكر، فإن الله تعالى حكيم لا يضع فضله عند من ليس له بأهل، وهؤلاء المعترضون بهذا الوصف، بخلاف من من الله عليهم بالإيمان من الفقراء وغيرهم فإنهم هم الشاكرون . ولما نهى الله رسوله عن طرد المؤمنين القانتين، أمره بمقابلتهم بالإكرام والإعظام، والتبجيل والاحترام، فقال: ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ﴾ أي: وإذا جاءك المؤمنون، فحيهم ورحب بهم ولقمهم منك تحية وسلام، وبشرهم بما ينشط عزائمهم وهمهم، من رحمة الله وسعة جوده وإحسانه، وحثهم على كل سبب وطريق يوصل لذلك .

ورهبهم من الإقامة على الذنوب، وأمرهم بالتوبة من المعاصي لئلا يوا مغفرة ربهم وجوده، ولهذا قال: ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح ﴾ أي: فلا بد مع ترك الذنوب والإقلاع والندم عليها، من إصلاح العمل وأداء ما أوجب الله، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة .

فإذا وجد ذلك كله ﴿ فأنه غفور رحيم ﴾ أي: صب عليهم من مغفرته ورحمته، بحسب ما قاموا به مما أمرهم به .

﴿ وكذلك نفصل الآيات ﴾ أي: نوضحها ونبينها، ونميز بين طريق الهدى من الضلال، والغي والرشاد، ليهتدي بذلك المهتدون، ويتبين الحق الذي ينبغي سلوكه . ﴿ ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ الموصلة إلى سخط الله وعذابه، فإن سبيل المجرمين إذا استبان وتوضحت أمكن اجتنابها والبعد منها، بخلاف ما لو كانت مشبهة ملتبسة، فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل .

﴿ ٥٦ - ٥٨ ﴾ ﴿ قل إن نهيتم أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا

من المهتدين ﴾ * قل إنني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ﴾ * قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ قل ﴾ لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى: ﴿ إنني نهيتم أن أعبد الذين تدعون من دون الله ﴾ من الأنداد والأوثان التي لا تملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فإن هذا باطل، وليس لكم فيه حجة بل ولا شبهة، إلا اتباع الهوى الذي اتبعه أعظم الضلال، ولهذا قال: ﴿ قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا ﴾ أي: إن أتبع أهواءكم ﴿ وما أنا من المهتدين ﴾ بوجه من الوجوه، وأما ما أنا عليه من توحيد الله وإخلاص العمل له، فإنه هو الحق الذي تقوم عليه البراهين والأدلة القاطعة .

وأنا ﴿ على بينة من ربي ﴾ أي: على يقين مبين، بصحته وبطلان ما عده، وهذه شهادة من الرسول جازمة لا تقبل التردد، وهو أعدل الشهود من الخلق على الإطلاق . فصدق بها المؤمنون، وتبين لهم من صحتها وصدقها، بحسب ما من الله به عليهم .

﴿ ولو ﴾ لكنكم أيها المشركون - ﴿ كذبتم به ﴾ وهو لا يستحق هذا منكم، ولا يليق به إلا التصديق، وإذا استمررتم^(١) على تكذيبكم، فاعلموا أن العذاب واقع بكم لا محالة، وهو عند الله، هو الذي ينزله عليكم إذا شاء وكيف شاء، وإن استعجلتم به فليس بيدي من الأمر شيء ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ فكما أنه هو الذي حكم بالحكم الشرعي، فأمر ونهى، فإنه سبحانه بالحكم الجزائي، فيثيب ويعاقب، بحسب ما تقتضيه حكمته . فالاعتراض على حكمه مطلقاً مدفوع، وقد أوضح السبيل وقص على عباده

(١) كذا في ب، وفي أ: استمررتم .

العامه، فليسوا يملكون من الأمر شيئاً، ولا يتحركون ولا يسكنون إلا بإذنه، ومع ذلك فقد وكل بالعباد حفظة من الملائكة، يحفظون العبد ويحفظون عليه ما عمل، كما قال تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾. ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ فهذا حفظة لهم في حال الحياة.

﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا﴾ أي: الملائكة الموكلون بقبض الأرواح ﴿وهم لا يفرطون﴾ في ذلك، فلا يزيدون ساعة مما قدر الله وقضاه ولا ينقصون، ولا ينفذون من ذلك إلا بحسب المراسيم الإلهية والتقادير الربانية.

﴿ثم﴾ بعد الموت والحياة البرزخية وما فيها من الخير والشر ﴿ردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ أي: الذي تولاهم بحكمه القدري، فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير، ثم تولاهم بأمره ونبيه، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ثم ردوا إليه ليتولى الحكم فيهم بالجزاء، ويثيبهم على ما عملوا من الخيرات، ويعاقبهم على الشرور والسيئات، ولهذا قال: ﴿ألا له الحكم﴾ وحده لا شريك له ﴿وهو أسرع الحاسبين﴾ لكمال علمه وحفظه لأعمالهم، بما أثبتته في اللوح المحفوظ، ثم أثبتته ملائكته في الكتاب الذي بأيديهم، فإذا كان تعالى هو المنفذ بالخلق والتدبير، وهو القاهر فوق عباده، وقد اعتنى بهم كل الاعتناء في جميع أحوالهم، وهو الذي له الحكم القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، فأين للمشركين العدول عن من هذا وصفه ونعته، إلى عبادة من ليس له من الأمر شيء، ولا عنده مثقال ذرة من النفع، ولا له قدرة وإرادة؟!!

أما والله لو علموا حلم الله عليهم وعفوه ورحمته بهم، وهم يبارزونهم بالشرك والكفران، ويتجرؤون على عظمتهم بالإفك والبهتان، وهو يعافيهم

عليها، وبعض هذا المذكور يبهز عقول العقلاء، ويذهل أفئدة النبلاء، فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته في أوصافه كلها.

وأن الخلق - من أولهم إلى آخرهم - لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته، لم يكن لهم قدرة ولا وسع في ذلك، فنبارك الرب العظيم، الواسع، العليم، الحميد المجيد، الشهيد، المحيط.

وجل من إله لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يشي عليه عباده، فهذه الآية، دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الحوادث.

﴿٦٠ - ٦٢﴾ ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون * ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾ هذا كله تقرير لإلوهيته، واحتجاج على المشركين به، وبيان أنه تعالى المستحق للحب والتعظيم، والإجلال والإكرام، فأخبر أنه وحده المتفرد بتدبير عباده، في يقظتهم ومنامهم، وأنه يتوفاهم بالليل وفاة النوم، فتهدأ حركاتهم، وتستريح أبدانهم، ويبعثهم في اليقظة من نومهم، ليتصرفوا في مصالحهم الدينية والدنيوية وهو - تعالى - يعلم ما جرحوا وما كسبوا من تلك الأعمال.

ثم لا يزال تعالى هكذا يتصرف فيهم، حتى يستوفوا أجلهم. فيقضى بهذا التدبير أجل مسمى، وهو: أجل الحياة، وأجل آخر فيما بعد ذلك، وهو البعث بعد الموت، ولهذا قال: ﴿ثم إليه مرجعكم﴾ لا إلى غيره ﴿ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ من خير وشر.

﴿وهو﴾ تعالى ﴿القاهر فوق عباده﴾ ينفذ فيهم إرادته الشاملة ومشيئته

الحق قصاً، قطع به معاذيرهم، وانقطعت له حججهم، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة ﴿وهو خير الفاصلين﴾ بين عباده في الدنيا والآخرة، فيفصل بينهم فضلاً يحمده عليه، حتى من قضي عليه، ووجه الحق نحوه.

﴿قل﴾ للمستعجلين بالعذاب، جهلاً وعناداً وظلماً، ﴿لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم﴾ فأوقعتهم بكم ولا خير لكم في ذلك، ولكن الأمر عند الخليم الصبور، الذي يعصيه العاصون، ويتجرأ عليه المتجرؤون، وهو يعافيهم ويرزقهم ويسدي عليهم نعمه الظاهرة والباطنة. ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ لا يخفى عليه من أحوالهم شيء، فيمهلهم ولا يمهلهم.

﴿٥٩﴾ ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ هذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلاً لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه. وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلاً عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار من الحيوانات والأشجار، والرمال والحصى والتراب، وما في البحار من حيواناتها ومعادنها وصيدها، وغير ذلك مما محتويه أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها.

﴿وما تسقط من ورقة﴾ من أشجار البر والبحر، والبلدان والقفر، والدنيا والآخرة، إلا يعلمها. ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض﴾ من حبوب الشمار والزروع، وحبوب البذور التي يبذرنا الخلق؛ وبذور النوبات البرية التي ينشي منها أصناف النباتات.

﴿ولا رطب ولا يابس﴾ هذا عموم بعد خصوص ﴿إلا في كتاب مبين﴾ وهو اللوح المحفوظ قد حواها واشتمل

ويرزقهم، لانجذبت دواعيهم إلى معرفته، وذهلت عقولهم في حبه، ولقتوا أنفسهم أشد المقت، حيث انقادوا لداعي الشيطان، الموجب للخزي والخسران، ولكنهم قوم لا يعقلون.

﴿٦٣ - ٦٤﴾ **﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾** قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴿أي: ﴿قل﴾ للمشركين بالله الداعين معه آلهة أخرى، ملزماً لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، على ما أنكروا من توحيد الإلهية ﴿من ينجيكم من ظلمات البر والبحر﴾ أي: شدائدكما ومشقاتكما، وحين يتعذر أو يتعسر عليكم وجه الحيلة، فتدعون ربكم تضرعاً يقلب خاضع، ولسان لا يزال يلهج بحاجته في الدعاء، وتقولون وأنتم في تلك الحال: ﴿لئن أنجانا من هذه الشدة التي وقعنا فيها لنكونن من الشاكرين﴾ لله، أي: المعترفین بنعمته، الواضعين لها في طاعة ربه، الذين حفظوها عن أن يذلوها في معصيته.

﴿قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب﴾ أي: من هذه الشدة الخاصة، ومن جميع الكروب العامة ﴿ثم أنتم تشركون﴾ لا تفون الله بما قلتم، وتنسون نعمه عليكم، فأبي: برهان أوضح من هذا على بطلان الشرك، وصحة التوحيد!!

﴿٦٥ - ٦٧﴾ **﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويليق بعضهم بأس بعض انظر كيف تصرف الآيات لعلمهم يفقهون﴾** وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل ﴿لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون﴾ أي: هو تعالى قادر على إرسال العذاب إليكم من كل جهة. ﴿من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم﴾ أي: يخلطكم شيعاً ويذيق

بعضكم بأس بعض ﴿أي: في الفتنة، وقتل بعضهم بعضاً.

فهو قادر على ذلك كله، فاحذروا من الإقامة على معاصيه، فيصيبكم من العذاب ما يتلفكم ويمحقكم، ومع هذا فقد أخبر أنه قادر على ذلك. ولكن من رحمة، أن رفع عن هذه الأمة العذاب من فوقهم بالرجم والحصب ونحوه، ومن تحت أرجلهم بالخسف.

ولكن عاقب من عاقب منهم بأن أذاق بعضهم بأس بعض، وسلط بعضهم على بعض، عقوبة عاجلة يراها المعتبرون، ويشعر بها العاملون^(١).

﴿انظر كيف نصراف الآيات﴾ أي: أنواعها، ونأتي بها على أوجه كثيرة وكلها دالة على الحق. ﴿لعلمهم يفقهون﴾ أي: يفهمون ما خلقوا من أجله، ويفقهون الحقائق الشرعية والمطالب الإلهية.

﴿وكذب به﴾ أي: بالقرآن ﴿قومك وهو الحق﴾ الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه. ﴿قل لست عليكم بوكيل﴾ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها، وإنما أنا منذر ومبلغ.

﴿لكل نبأ مستقر﴾ أي: وقت يستقر فيه، وزمان لا يتقدم عنه ولا يتأخر ﴿وسوف تعلمون﴾ ما توعدون به من العذاب.

﴿٦٨ - ٦٩﴾ **﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾** وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلمهم يتقون ﴿المراد بالخوض في آيات الله: التكلم بما يخالف الحق، من تحسين المقالات الباطلة والدعوة إليها ومدح أهلها، والإعراض عن الحق والقدح فيه وفي أهله. فأمر الله رسوله أصلاً، وأمته تبعاً، إذا رأوا من يخوض بأيات الله بشيء مما ذكر بالأعراض عنهم، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل، والاستمرار على ذلك حتى



يكون البحث والخوض في كلام غيره، فإذا كان في كلام غيره زال النهي المذكور.

فإن كان مصلحة كان مأموراً به، وإن كان غير ذلك كان غير مفيد ولا مأمور به، وفي ذم الخوض بالباطل، حث على البحث والنظر والمناظرة بالحق ثم قال: ﴿وإما ينسينك الشيطان﴾ أي: بأن جلست معهم، على وجه النسيان والغفلة. ﴿فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ يشمل الخائضين بالباطل، وكل متكلم بمحرم، أو فاعل لمحرم، فإنه يحرم الجلوس والحضور عند حضور المنكر، الذي لا يقدر على إزالته.

هذا النهي والتشريع لمن جلس معهم، ولم يستعمل تقوى الله، بأن كان يشاركتهم في القول والعمل المحرم، أو يسكت عنهم وعن الإنكار، فإن استعمل تقوى الله تعالى، بأن كان يأمرهم بالخير، وينهاهم عن الشر والكلام الذي يصدر منهم، فترتب على ذلك زوال الشر أو تخفيفه، فهذا ليس عليه حرج ولا إثم، ولهذا قال: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلمهم يتقون﴾ أي: ولكن لذكورهم ويعظهم، لعلمهم يتقون الله تعالى.

(١) في ب: العاملون.

والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴿٦٠﴾ قل ﴿٦١﴾ يا أيها الرسول للمشركين بالله، الداعين معه غيره، الذين يدعونكم إلى دينهم، مبيناً وشارحاً لوصف آلهتهم، التي يكتفي العاقل بذكر وصفها عن النهي عنها، فإن كل عاقل إذا تصور مذهب المشركين جزم ببطلانه قبل أن تقام البراهين على ذلك، فقال: ﴿أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا﴾ وهذا وصف يدخل فيه، كل من عبد من دون الله، فإنه لا ينفع ولا يضر، وليس له من الأمر شيء، إن الأمر لإلا الله.

﴿وتردد على أعقابنا بعد إذ هदानا الله﴾ أي: وننقلب بعد هداية الله لنا إلى الضلال، ومن الرشد إلى الغي، ومن الصراط الموصل إلى جنات النعيم، إلى الطرق التي تفضي بسالكها إلى العذاب الأليم، فهذه حال لا يرتضيها ذورشد، وصاحبها كالذي استهوته الشياطين في الأرض ﴿أي: أضلته وتيهته عن طريقه ومنهجه، الموصل له إلى مقصده. فبقي حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى﴾ والشياطين يدعونه إلى الردى، فبقي بين الداعيين حائراً وهذه حال الناس كلهم، إلا من عصمه الله تعالى، فإنهم يجدون فيه جواز بدواعي (٢) متعارضة، دواعي (٣) الرسالة والعقل الصحيح، والفتنة المستقيمة ﴿يدعونه إلى الهدى﴾ والصعود إلى أعلى عليين. ودواعي (٤) الشيطان ومن سلك مسلكه، والنفس الأمارة بالسوء، يدعونه إلى الضلال، والنزول إلى أسفل سافلين، فمن الناس من يكون مع داعي الهدى في أموره كلها أو أغلبها، ومنهم من بالعكس من ذلك. ومنهم من يتساوى لديه الداعيان، ويتعارض عنده الجاذبان، وفي هذا الموضع تعرف أهل السعادة من أهل الشقاوة.

وقوله: ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ أي: ليس الهدى إلا الطريق

لغير الله فهو لعب، فهذا أمر الله تعالى أن يترك ويجذر، ولا يغتر به، وتنظر حاله، ويجذر من فعالة، ولا يغتر بتعويقه عما يقرب إلى الله.

﴿وذكر به﴾ أي: ذكر بالقرآن ما ينفع العباد، أمراً، وتفصيلاً، وتحسيناً له، بذكر ما فيه من أوصاف الحسن، وما يضر العباد نهيًا عنه، وتفصيلاً لأنواعه، وبيان ما فيه من الأوصاف القبيحة الشنيعة الداعية لتركه، وكل هذا لئلا تسلب نفس بما كسبت، أي: قبل اقتحام العبد للذنوب وتجتره على علام الغيوب، واستمرارها على ذلك المرهوب، فذكرها، وعظها، لترتدع وتترج وتكف عن فعلها.

وقوله: ﴿ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع﴾ أي: قبل [أن] تحيط بها ذنوبها، ثم لا ينفعها أحد من الخلق، لا قريب ولا صديق، ولا يتولاها من دون الله أحد، ولا يشفع لها شافع ﴿وإن تعدل كل عدل﴾ أي: تفتدي بكل فداء، ولو بملء الأرض ذهباً ﴿لا يؤخذ منها﴾ أي: لا يقبل ولا يفيد.

﴿أولئك﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿الذين أسلوا﴾ أي: أهلكوا وأسوا من الخير، وذلك ﴿بما كسبوا﴾ لهم شراب من حميم ﴿أي: ماء حار قد انتهى حره، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم﴾ وعذاب اليم بما كانوا يكفرون.

﴿٧١-٧٣﴾ ﴿قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا وترد على أعقابنا بعد إذ هदानا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين * وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون * وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب



وفي هذا دليل على أنه ينبغي أن يستعمل المذكر من الكلام ما يكون أقرب إلى حصول مقصود التقوى. وفيه دليل على أنه إذا كان التذكير والوعظ مما يزيد الموعوظ شراً إلى شره، إلى أن تركه هو الواجب (١)، لأنه إذا ناقض المقصود، كان تركه مقصوداً.

﴿٧٠﴾ ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرهم الحياة الدنيا وذكر به أن تسلب نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾ المقصود من العباد أن يخلصوا لله الدين، بأن يعبدوه وحده لا شريك له، ويبدلوا مقدرهم في مرضاته ومحابه. وذلك متضمن لإقبال القلب على الله وتوجهه إليه، وكون سعي العبد نافعاً، وجدلاً لا هزلاً، وإخلاصاً لوجهه الله لا رياء وسمعة، هذا هو الدين الحقيقي الذي يقال له دين، فأما من زعم أنه على الحق، وأنه صاحب دين وتقوى، وقد اتخذ دينه لعباً ولهواً. بأن لها قلبه عن محبة الله ومعرفته، وأقبل على كل ما يضره، ولها في باطله، ولعب فيه ببدنه، لأن العمل والسعي إذا كان

(١) في ب: كان تركه هو الواجب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: دواع.

(٣) كذا في ب، وفي أ: داع.

(٤) كذا في ب، وفي أ: داعي.

التي شرعها الله على لسان رسوله، وما عدها فهو ضلال وردى وهلاك .

﴿وأمرنا لنسلم لرب العالمين﴾ بأن نقاد لتوحيد، ونستسلم لأمره ونواهيه، وندخل تحت ريق عبوديته، فإن هذا أفضل نعمة أنعم الله بها على العباد، وأكمل تربية أوصلها إليهم .

﴿وأن أقيموا الصلاة﴾ أي : وأمرنا أن نقيم الصلاة بأركانها وشروطها وسننها ومكملاتها . ﴿واقنوه﴾ بفعل ما أمر به، واجتنب ما عنه نهى . ﴿وهو الذي إليه تحشرون﴾ أي : تجتمعون ليوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها .

﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق﴾ ليأمر العباد وينهاهم، ويشبههم ويعاقبهم، ﴿ويوم يقول كن فيكون قوله الحق﴾ الذي لا مربة فيه ولا مشنوية، ولا يقول شيئاً عبثاً ﴿وله الملك يوم ينفخ في الصور﴾ أي : يوم القيامة، خصه بالذكر - مع أنه مالك كل شيء - لأنه تنقطع فيه الأملاك، فلا يبقى ملك إلا لله الواحد القهار .

﴿عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير﴾ الذي له الحكمة التامة، والنعمة السابعة، والإحسان العظيم، والعلم المحيط بالسرائر والبواطن والخفايا، لا إله إلا هو، ولا رب سواه .

﴿٧٤ - ٨٣﴾ واذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين * وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾ إلى آخر القصة . يقول تعالى : واذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، مثبناً عليه ومعظماً في حال دعوته إلى التوحيد، ونبيه عن الشرك، إذ قال لأبيه ﴿آزر أتتخذ أصناماً آلهة﴾ أي : لا تنفع ولا تضر وليس لها من الأمر شيء، ﴿إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾ حيث عبدتم من لا يستحق من

التي شرعها الله على لسان رسوله، وما عدها فهو ضلال وردى وهلاك .

(١) زيادة من هامش : ب وهي بخط الشيخ - رحمه الله -
(٢) كذا في ب، وفي أ: المحاجة لمن.



قوم إني بريء مما تشركون﴾ حيث قام البرهان الصادق الواضح على بطلانه .

﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً﴾ أي : لله وحده، مقبلاً عليه، معرضاً عن من سواه . ﴿وما أنا من المشركين﴾ فتبيراً من الشرك، وأدعياً بالتوحيد، وأقام على ذلك البرهان [وهذا الذي ذكرنا في تفسير هذه الآيات هو الصواب، وهو أن المقام مقام مناظرة من إبراهيم لقومه وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها . وأما من قال إنه مقام نظر في حال طفولته فليس عليه دليل] (١)

﴿وحاجه قومه قال : أتعاجوني في الله وقد هدان﴾ أي فائدة لمحااجة من (٢) لم يتبين له الهدى؟ فأما من هداه الله، ووصل إلى أعلى درجات اليقين، فإنه - هو بنفسه - يدعو الناس إلى ما هو عليه .

﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾ فإنها لن تضرني، ولن تمنع عني من النفع شيئاً . ﴿إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون﴾ فتعلمون أنه وحده المعبود المستحق للعبودية .

﴿وكيف أخاف ما أشركتم﴾ وحالها حال العجز وعدم النفع، ﴿ولا

التي شرعها الله على لسان رسوله، وما عدها فهو ضلال وردى وهلاك .

(١) زيادة من هامش : ب وهي بخط الشيخ - رحمه الله -
(٢) كذا في ب، وفي أ: المحاجة لمن.

وهديته^(١) من أنواع الهدايا الخاصة التي لم تحصل إلا لأفراد من العالم؛ وهم أولو العزم من الرسل الذي هو أحدهم.

﴿ومن ذريته﴾ يحتمل أن الضمير عائد إلى نوح، لأنه أقرب مذكور، ولأن الله ذكر مع من ذكر لوطاً، وهو من ذرية نوح، لا من ذرية إبراهيم لأنه ابن أخيه.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى إبراهيم، لأن السياق في مدحه والثناء عليه، ولوط - وإن لم يكن من ذريته - فإنه ممن آمن على يده، فكان منقبة الخليل وفضيلته بذلك، أبلغ من كونه مجرد ابن له.

﴿داود وسليمان﴾ بسن داود و﴿أيوب ويوسف﴾ بن يعقوب. و﴿موسى وهارون﴾ ابني عمران، و﴿كذلك﴾ كما أصلحنا ذرية إبراهيم الخليل، لأنه أحسن في عبادة ربه، وأحسن في نفع الخلق ﴿كذلك نجزي المحسنين﴾ بأن نجعل لهم من الثناء الصدق، والذرية الصالحة بحسب إحسانهم.

﴿وزكريا ويحيى﴾ ابني ﴿وعيسى﴾ ابن مريم. و﴿إلياس كل﴾ من هؤلاء ﴿من الصالحين﴾ في أخلاقهم وأعمالهم وعلومهم، بل هم سادة الصالحين وقادتهم وأئمتهم.

﴿واسماعيل﴾ بن إبراهيم أبو الشعب الذي هو أفضل الشعوب، وهو الشعب العربي، ووالد سيد ولد آدم محمد ﷺ و﴿يونس﴾ بن متى و﴿لوطاً﴾ بن هاران، أخي إبراهيم. و﴿كلاً﴾ من هؤلاء الأنبياء والمرسلين ﴿فضلنا على العالمين﴾ لأن درجات الفضائل أربع - وهي التي ذكرها الله بقوله: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ فهؤلاء من الدرجة العليا، بل هم أفضل الرسل على الإطلاق، فالرسل الذين قصهم الله

العالم العامل المعلم، فإنه يجعله الله إماماً للناس بحسب حاله، ترمق أفعاله، وتقتفى آثاره، ويستضاء بنوره، ويمشى بعلمه في ظلمة ديجوره.

قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾.

﴿إن ربك حكيم عليم﴾ فلا يضع العلم والحكمة، إلا في المحل اللائق بها، وهو أعلم بذلك المحل وبما ينبغي له.

﴿٨٤ - ٩٠﴾ ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك

نجزي المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين * ومن آياتهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبتناهم وهديتناهم إلى صراط مستقيم * ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا خبط عنهم ما كانوا يعملون * أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين * أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين * لما ذكر الله تعالى عبده وخليته إبراهيم عليه السلام، وذكر ما من الله عليه به من العلم والدعوة والصبر، ذكر ما أكرمه الله به من الذرية الصالحة، والنسل الطيب. وأن الله جعل صفوة الخلق من نسله، وأعظم هذه المنقبة والكرامة الجسيمة، التي لا يدرك لها نظير فقال: ﴿وهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ ابني، الذي هو إسرائيل، أبو الشعب الذي فضله الله على العالمين.

﴿كلاً﴾ منهما ﴿هدينا﴾ الصراط المستقيم في علمه وعمله.

﴿ونوحاً هدينا﴾ ﴿من قبل﴾



تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً أي: إلا بمجرد اتباع الهوى. ﴿فأي: الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾.

قال الله تعالى فاصلاً بين الفريقين ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا﴾ أي: يخلطوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴿الأمن من المخاوف والعذاب والشقاء، والهداية إلى الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقاً، لا يشرك ولا بمعاصي، حصل لهم الأمن التام والهداية التامة. وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها. ومفهوم الآية الكريمة، أن الذين لم يحصل لهم الأمان، لم يحصل لهم هداية ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء.

ولما حكم إبراهيم عليه السلام، بما بين به من البراهين القاطعة قال: ﴿وتلك حجبتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ أي: علا بها عليهم، وفلجهم بها.

﴿نرفع درجات من نشاء﴾ كما رفعنا درجات إبراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة، فإن العلم يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجات. خصوصاً